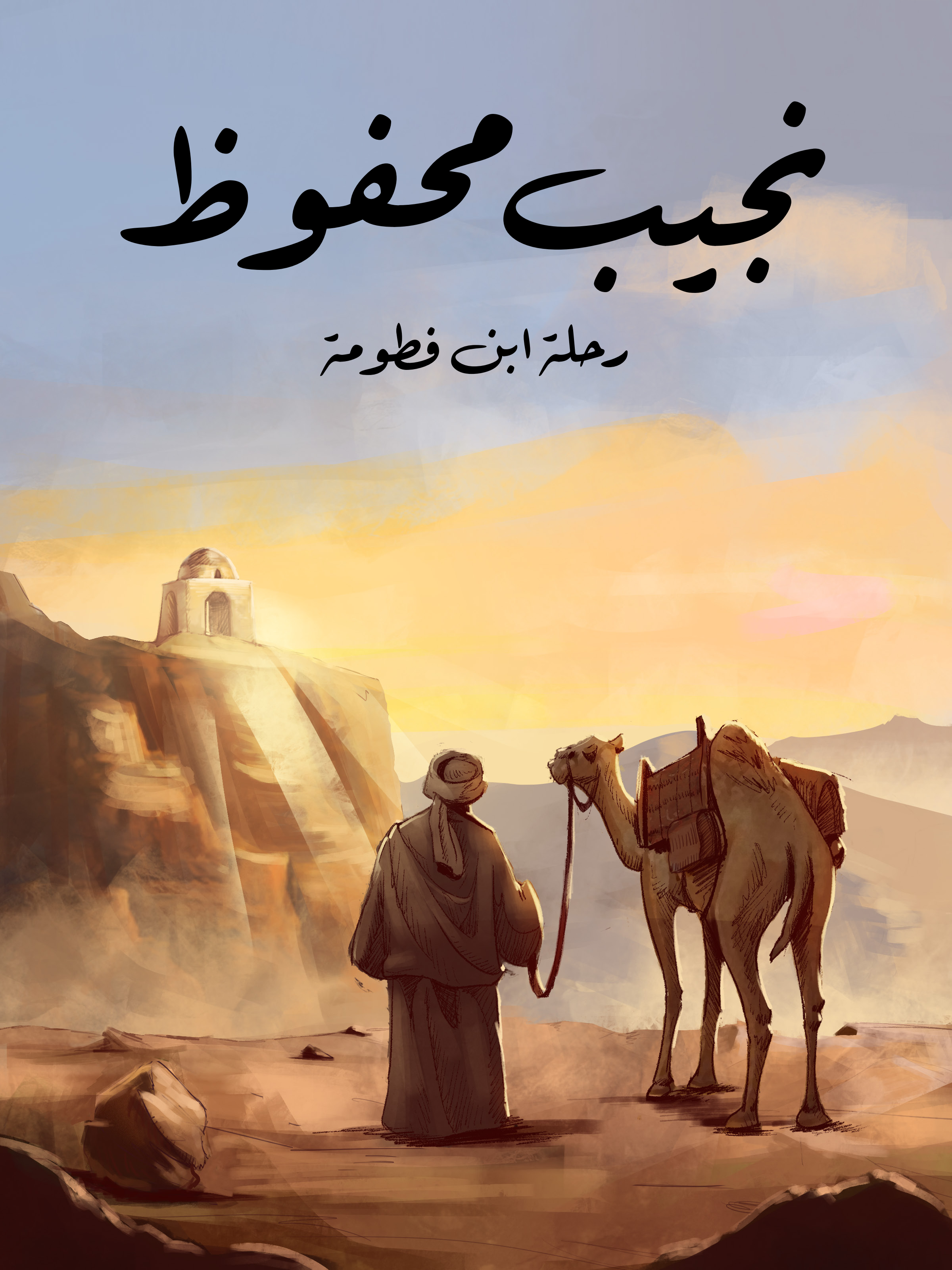

نجيب محفوظ
رحلة ابن فطومة

رحلة ابن فطومة

تأليف
نجيب محفوظ



رحلة ابن فطومة

نجيب محفوظ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: سامح عرفة

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٤٧ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الوطن

الحياة والموت، الحُلم واليقَظة، محطَّات للرُّوح الحائر يَقطعها مرحلةً بعد مرحلة، مُتلقِّيًا من الأشياء إشاراتٍ وغمزات، مُتخبِّطًا في بحر الظلمات، مُتشبِّثًا في عنادٍ بأملٍ يَتجدَّد باسمًا في غموض. عمَّ تبحث أيها الرحَّالة؟ أي العواطف يَجيش بها صدرك؟ كيف تَسُوس غرائزَك وشطحاتك؟ لِم تُقهقه ضاحكًا كالفُرسان؟ ولِم تَذرف الدَّمع كالأطفال؟ وتشهَد مَسرَّات الأعياد الرَّاقصة، وترى سيف الجلَّاد وهو يضرب الأعناق، وكلُّ فعلٍ جميلٍ أو قبيحٍ يستهلُّ باسم الله الرحمن الرَّحيم. وتستأثر بوجدانك ظلالٌ بارعةٌ براعةَ الساحر مثل الأمِّ والمُعلِّم والحبيبة والحاجب. ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكنَّ أسماءها تبقى مكلَّلة بالخلود. ومهما نبا بي المكان فسوف يظلُّ يقطر أُلْفةً، ويُسدِي ذكرياتٍ لا تُنسَى، ويحفِر أثرَه في شَغاف القلب باسم الوطن، سأعشق ما حييتُ نفثاتِ العطَّارين، والمآذن والقِباب، والوجه الصبيح يُضيء الزقاق، وبغال الحكم وأقدام الحفاة، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب، والجياد الرَّاقصة، وأشجار اللَّبْلاب، ونَوح اليمام، وهديل الحمام، وتُحدِّثني أمي فتقول: يوم مولدك.

وتهزُّ رأسها جميل التكوين فأقول بحبور: بل يومك هو الأصل.

كان أبي محمد العنَّابي تاجر غلال مُترَعًا بالثراء، أنجب سبعة تجار مرموقين، وعُمِّر حتى جاوزَ الثَّمانين مُتمتِّعًا بالصحة والعافية، وفي الثمانين رأى أمي الجميلة فطُّومة الأزهري، وهي بنت سبعة عشر، آخر عنقود جزار يُدعى الأزهري قطائف فغزَت قلبه وتزوَّج منها وأقام معها في دارٍ رحيبة اشتراها باسمها مُحدِثًا في أسرته غضبًا وشغبًا. اعتبر إخوتي الزواج لُعبة قذرة غير مشروعة، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضي وكبير التجار، ولكنه مرق من قبضتهم مروقَ عاشقٍ مسلوبِ الإرادة، فاعتدَّ الزواجَ حقًّا لا يقبل

المناقشة، وفارِقَ السنِّ وهمًا يتعلَّل به المُغرضون، وراح ينهل من مَعينِ سعادته بقلبٍ مليءٍ بالثقة.

– وجاء مولدك مُؤكِّدًا للهزيمة مُجدِّدًا للغضب.

وأقول لها كثيرًا: لا حدَّ لطمَع الإنسان.

فمنذ حداثتي وأنا أتلقَّى أجملَ الكلمات رغم ارتطامي بأقبح الفِعال، وسمَّاني أبي «قنديل» ولكن إخوتي أطلقوا عليَّ «ابن فطومة» تبرُّؤًا من قرابتي وتشكيكًا فيها. ومات أبي قبل أن يطبع صورته في وعيي تاركًا لنا ثروةً نضمن حياة رغدة حتى آخر العمر. وقطعتِ الخصومة ما بيننا وبين إخوتي. وخافتهم أمي على نفسها وعليَّ؛ فأحاطت بها الوساوس والظنون حتى قرَّرَت ألَّا تُرسلني إلى الكتَّاب، فعهِدَت بي إلى الشيخ مغاغة الجبيلي — وكان جارًا لأسرتها — ليُلقِّنني العِلم في داري. وعنه تلقَّيت دروسًا في القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوُّف والرحلات. كان في الأربعين، قويًّا مهيبًا، ذا لحيةٍ رشيقةٍ وعِمامةٍ عالية، وجُبَّةٍ أنيقةٍ، وعينين لامعتين ثاقبتَي النظرة، يمدُّ صوته المليء عند إلقاء الدرس، ويُرسِله على مهل وهدوء، ويذلِّل الصعب بجودة الشرح ورِقَّة الابتسامة. وكانت أُمِّي تتابع الدروس باهتمام مُستفيدةً من فراغها الطويل، تُنصت من وراء سِتارٍ ونحن في القاعة شتاءً، ومن وراء خَصاص، ونحن في السلاملك في بقيَّة الفصول. وكانت تقول لي: أراك سعيدًا بمُعلِّمك، وهذا حظٌّ حسَن.

فأقول لها بحماس: إنه شيخ عظيم.

وكان يُخصِّص وقتًا للمناقشة، فيطرح ما يرى من أسئلة، ولكنه يدعوني لإعلان خواطري، ويُعاملني مُعاملة الرَّاشدين.

ويومًا — لا أذكر في أي فترة من العمر — سألتُه: إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء؟

فأجابني بأسًى: الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعدَّاها إلى الخارج.

ويفيض في الحديث فيُلهِب الأوضاع بنيرانه .. حتى الوالي لا يسلَم من شرره. وقلت له: إذن إبليس هو الذي يُهيمِن علينا لا الوحي.

فقال برضًا: أُهنِّئك على قولك، إنه أكبر من سِنِّك.

– والعمل يا سيدنا الشيخ؟

فقال بهدوء: أنت ذكي، وكل آتٍ قريب.

أمَّا حديثه عن الرحلات فمثارٌ للعشق والسرور. وتكشَّف في مجرى حديثه عن رَحَّالةٍ قديم. قال: عرَفتُ الرحلات في صحبة المرحوم أبي، فطوَّفنا بالمَشرِق والمغرب.

فأقول بلهفة: حدِّثني عن مشاهداتك يا سيدنا.

فحدَّثني بسخاء حتى عايشتُ بخيالي ديار المسلمين المُترامية، وتبدَّى لي وطني نجمًا في سماء مكتظة بالنجوم. وقال: ولكن الجديد حقًّا لن تعثر عليه في ديار الإسلام.

وتتساءل عيناي عن السبب فيقول: جميعها مُتقاربة في الأحوال والمشارب والطقوس، بعيدة كلُّها عن روح الإسلام الحقيقي، ولكنك تكتشف ديارًا جديدة وغريبة في الصَّحْراء الجنوبية.

أثار أشواقي لدرجة الاشتعال ثم قال: قمتُ بتلك الرحلة وحدي عَقِب وفاة أبي، فزرتُ ديار المشرق والحيرة والحلبة، ولولا الظروف المُعانِدة لَزرتُ الأمان والغُروب والجبل، ولكن القافلة وقفَت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهليَّة في دار الأمان.

ويحدِجني بنظرة غريبة ثم يقول: وهي ديار وثنيَّة.

فهتفتُ: أعوذ بالله!

– ولكن الغريب لا يلقى فيها أو في الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها المُلِحَّة إلى التجارة والسياحة.

فهتفتُ مرَّة أخرى: ولكنها ملعونة!

فقال بهدوء: لا حرَجَ على المشاهد.

– ولِمَ لمْ تُعاود الكرَّة؟

– ظروف الحياة والأسرة أنسَتني أهمَّ هدفٍ من الرحلة وهو زيارة دار الجبل.

فسألته بشغف: وما خطورة دار الجبل؟

فقال مُتنهِّدًا: تسمع عنها الكثير، كأنها معجزة البلاد، وكأنها الكمال الذي ليس بعده كمال.

– لا شك أنَّ كثيرين من الرحَّالة قد كتبوا عنها.

فقال بنبرة لم تخلُ من أسًى: لم أُصادف في حياتي آدميًّا ممن زاروها، ولا وجدتُ كتابًا عنها أو مخطوطًا.

فقلتُ بضيق: إنه أمرٌ عجيبٌ لا يُصدَّق.

فقال بكآبة: إنها سِرٌّ مُغلَق.

وكأيِّ سرٍّ مُغلَق شدَّني إلى حافَّته، وغاص بي في ظلماته، وضرَّم النَّار في خيالي، وكلما ساءني قولٌ أو فِعلٌ رَفَّت روحي حول دار الجبل، وراح الشيخ مغاغة الجبيلي يُنوِّر عقلي وروحي ويُبدِّد الظلام من حولي، ويُوجِّه أشواقي إلى أنبل ما في الحياة. وسعِدَت أُمي بما أكتسبه يومًا بعد يوم، وشاركت في تكويني بحبها وجمالها. متوسطة الطول كانت، رشيقة العود، تنضح بشَرتها بالبياض والصفاء والملاحة. ولم تتردَّد مرَّة في إعلان إعجابها بجمالي، ولكنها قالت لي بنفس الصراحة: كلامك كثيرًا ما يُكدِّر صفوي.

وتساءلتُ عن السبب فقالت: كأنك لا ترى إلا الجانب القبيح من الحياة.

ولم تكن تُنكِر أقوالي أو ترى فيها مبالغة، ولكنها أفصحت عن إيمانها قائلة: الله صانعُ كلِّ شيء، وله في كل شيء حكمة.

فقلتُ مندفعًا: ساءني الظلم والفقر والجهل.

فقالت بإصرار: الله يُطالبنا بالرِّضا في جميع الأحوال.

وطرحتُ الموضوع للمناقشة مع الشيخ، ولكن موقفه كان واضحًا تمامًا؛ فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار، ولكنه همَس في أُذني برقة: تجنَّبْ إزعاج والدتك.

وهي نصيحة انسقتُ إلى اتباعها مدفوعًا ومدعمًا بحبي الكبير لها، ولم أجد في ذلك مشقَّة؛ فقد كانت سذاجتها تعادل جمالها نفسه، غير أنَّ الأيام التي وهبتني الدرس والتربية دفعَت بي أيضًا إلى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة، وتجلَّت مشاهدها على ضوء مشاعل جديدة، ويسألني الشيخ مغاغة الجبيلي: ماذا نويتَ أن تعمل في هذه الحياة التي لا تكتمل إلا بالعمل؟

ولكني كنتُ أرى حليمة عدلي الطنطاوي بعين جديدة، طالما رأيتها على عهْد الصِّبا، وهي تقودُ أباها الضرير قارئ القرآن. لهم بيت قديم في حارتنا التي تقوم فيها دارنا مُتألِّقة كالكوكب. وكان اهتمامي يتجاوزها إلى أبيها بقامته النحيلة، وعينيه المطموستين، وأنفه الغليظ المجدور. أثار عطفي ودهشتي، وأعجبني صوته وهو يُؤذِّن للصلاة مُتطوِّعًا أمام باب داره، وحوَّلتني الأيام اللاهثة إلى البنت فاكتشفتها من جديد. كانت أرض الحارة زلقة غِبَّ مطرٍ خفيف، وكان الشيخ يسير بحذَر مُسلِّمًا يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسَّس له مواضع قدميه بضربات متتابعة، كمنقار دجاجة تنقِّب عن حَبٍّ. وسايرَته حليمة غائصةً في جلبابٍ فضفاضٍ غامقِ اللون، لا يظهر من خمارها المسدَل إلا عينان، ولكن هيئتها تمثَّلت لعينيَّ المُشرَبتين بماء الفتوَّة أنثى كاملة، تتجسَّد جواهرها المستورة كُلَّما خفَق النسيم بجلبابها كأنها جمرات تحت رماد. وزلَّت قدمها أو كادت

فشدَّت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرَّك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرَف الخمار عن وجهها؛ فانطبع بتمامه على بصري غارسًا حُسْنَه في أركان وجداني. تلقَّيت في لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافَّة الرموز التي تُقرِّر مصير قلب، وسألتني أمي بناءً على ما سمعَته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذي تكتمل به الحياة: ألا توافقني أنه لا يَصلُح لك إلا التجارة؟

فأدهشتُها إذ قلت: إني أفكر في الزواج أولًا.

ورحَّبَت بحرارة مُؤجِّلة الحديثَ عن «العمل»، وراحت تَصِف لي بعض بنات التجار، ولكني أدهشتها مرَّة أخرى وأنا أقول: وقع اختياري على حليمة بنت الشيخ عدلي الطنطاوي.

تلقَّت أمي صدمةً لم تدارِها، وقالت: إنها دون المطلوب في كل شيء.

فقلت بإصرار: ولكني أريدها.

فقالت باستياء مُتجهِّمةَ الوجه: ستُشمِت بنا إخوتك.

ولكن إخوتي كانوا كشيء لم يكن. وشعوري بأني رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت. وهي لم تُعاندني، وإن ضنَّت عليَّ بالموافقة، وفي الوقت نفسه لم تفقد الأمل. وإذا بالأمور تجري مع رغباتي، وإن يكن بثمن باهظ. مضَت معارضة أمي تخفُّ حتى قالت لي مُسلِّمةً: سعادتك أغلى عندي من أي شيء أو اعتبار.

وفي الحال قامت بما يُنتظَر منها؛ فذهبت من السراي إلى البيت المُتهرِّئ وخطبَت لي حليمة. ومرة تالية صحِبَتني معها، فجالسنا الشيخ عدلي الطنطاوي وحرَمه، ودخلَت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليدين، ومكثَت دقائق معدودة ثم ذهبت. ومضى الاستعداد للزواج بسرعةٍ محمودة، ولاحظت يومًا أن أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي يُعاني ارتباكًا غير معهود، وأنَّه يحدِّثني بنبرة جديدة تمامًا، قال بهدوء وهو ينظر إلى مركوبه: ثمَّة أمرٌ هامٌّ يا قنديل.

فأثار اهتمامي لأقصى درجة فقلتُ: رهْن إشارتك يا مولاي.

فقال بأسًى: لم أعُدْ أطيق وَحْدتي.

كان الشيخ أرملًا، وقد أنجب ثلاث بنات تزوَّجْن وقَرَرْن في بيوتهن. سألته ببراءة: ولمَ تبقى وحيدًا؟ .. ألم يتزوج النبيُّ عليه الصلاة والسلام عَقِب وفاة السيدة خديجة؟!

– صدقت، وهذا ما أُفكِّر فيه.

فقلت بحماس: وإنك لَرجلٌ تُرحِّب به كِرامُ الأُسر.

فقال بحياء: ولكن مطلبي في أسرتك بالذات.

فدهِشتُ وأحدق بي انزعاج شامل. تساءلت: أسرتي؟!

فأجاب بخشوع: أجل، الست والدتك.

فقلت بعجَلة: ولكن والدتي لا تتزوج.

– لِمَ يا قنديل؟

فحِرتُ قليلًا ثم قلت: إنها أمي.

فقال بهدوء: الزواج شريعة الله سبحانه، ولن يهون عليك أن تتزوج وتترك أمك وحيدة.

وصمتَ قليلًا ثم قال: الله يهدينا إلى سواء السبيل.

في وَحْدتي تلاطمَت أفكاري، وترتَّبت الأحداث في خيالي في صورة جديدة كئيبة. قلت لنفسي: إنَّ إذعان أمي المفاجئ لرغبتي في الزواج بحليمة ليس إلا نتيجة لرغبتها في الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلي. حصلت أمور بريئة من وراء ظهري، ولكنها اعترضت حلقي، وجدت نفسي في موقف دقيق حرِج ما بين أعزِّ شخصين في حياتي وبين غضبي وسخطي وحيائي. وهتفت من أعماقي: اللهم جنِّبني الظلم والحمق!

الحق أنني سلكتُ سلوكًا هو أحقُّ بشخص أكبر مني سنًّا وتجربةً، تركت الأمور تجري كما يشاء الله، وأقنعت نفسي المُتمرِّدة بأنَّ الزواج حقٌّ للرجل والمرأة، وأن أُمِّي ليست أمًّا خالصة ولكنها امرأة أيضًا، وأننا خُلقنا لنُكابد الحقيقة، ونصمُد لها، ونتلقَّى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين، وحملتُ التجربة بكافة أبعادها على عاتقي، وفاتحتُ أمِّي بالموضوع بصراحتي المألوفة، وأبدت دهشة أحنقتني وتمتمت: ما خطَرَ لي ذلك ببال.

فقلت ببرود: ولكنه حق وعدل.

ومضيتُ أهضم خيبتي على حين قالت هي في تلعثُم: أُريد فرصة للتفكير.

اعتبرتُ ذلك أول إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت بقلب كئيب، حتى همسَت لي في حياء وارتباك: لتكُنْ مشيئة الله!

وتأمَّلتُ كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداري حياءنا بقبسات الوحي الإلهي، وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأم، وتمَّ الاتفاق على انتقال أمي إلى دار الشيخ مغاغة وهي دار حسنة، وانتقال حليمة إلى السراي. وصمَّمتُ على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضًا عن ذيلي رواسبَ الأكدار، ولكن هبط علينا قدَرٌ فنسفَ خطَّتنا. زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالي فاقتحمَنا كعاصفة. رأى ذات يوم حليمة فقَرَّر

أن يجعل منها زوجته الرَّابعة، وذُعر الشيخ عدلي الطنطاوي، وقال لأستاذي الشيخ مغاغة: لا قِبَل لي بالرفض.

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد، فزُفَّت حليمة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة. انطويت على نفسي ذاهلًا وأنا أتساءل عن قلب حليمة، عن مشاعرها الدَّفينة، هل شاركتني ألمي أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينيها، ووجدتُني في وَحْدتي أقول لنفسي: خانني الدين، خانتني أمي، خانتني حليمة، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة!

بدا كلُّ شيء كالحًا، وبَدْءًا من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلي الطنطاوي حتى الوالي نفسه، مرورًا بأُناس ومعاملات تستحقُّ الطوفان ليحلَّ محلَّها عالم جديد نظيف. لم أتأثَّر بعطف أمي وحزنها، ولا حِكَم الشيخ مغاغة التي ذرَّها عليَّ. بدَت لي الدنيا صفراءَ كريهةً لا تُحتَمل ولا تُعاشر. وقالت لي أمي: يجب أن تتزوج في أقرب وقت، ولعل الله يدَّخر لك أفضل مما اخترت!

فهززت رأسي رافضًا، فقال الشيخ مغاغة: اشرع في العمل بلا تأخير.

فهززت رأسي أيضًا .. فقال الرَّجل: لديك ولا شك خطة؟

فقلتُ مُعرِبًا عن عواطفي الجائحة: أن أقوم برحلة!

فتساءلت أمي في انزعاج: أي رحلة؟ .. إنك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك!

فقلت: هي أنسب سنٍّ للرحلة.

ونظرتُ إلى أستاذي مليًّا وقلتُ: سأزور المشرق والحيرة والحلبة، ولكنِّي لن أتوقف كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التي قامت في الأمان، سأزور الأمان والغُروب ودار الجبل، أي وقت يلزمني لذلك؟

فقال الشيخ مغاغة الجبيلي وهو يلحظ أمي بإشفاق: يلزمك عام على الأقل إن لم يزد.

فقلت بتصميم: ليس هذا بالكثير على طالب الحِكمة، أُريد أن أعرف، وأن أرجع إلى وطني المريض بالدواء الشافي.

وهمَّت أمي بالكلام، ولكني سبقتُها قائلًا بحزم: إنه قرار لا رجعةَ فيه.

واستحوذ عليَّ الحلم، وتلاشى الواقع، وتراءت دار الجبل لعين خيالي كنجم معشوق يعتلي عرشه وراء النجوم، فنضجت الرغبة الأبديَّة في الرحلة على لهيب الألم الدائم. وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلي للواقع، فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا. كان في الأربعين، يُدعى القاني بن حمديس، قوي البنيان والرأي. قال الشيخ مغاغة: أودُّ أن يذهب معك ويرجع معك.

فقال الرجل: هذا يتوقَّف على رغبته، نحن نُقيم في كلِّ دارٍ عشرة أيام، فيمضي معنا من يقنَع بها، ويتخلَّف من يروم المزيد، وعلى أيِّ حال توجد قافلة كلَّ عشرةِ أيام.

فقال لي الشيخ مغاغة: عشرة أيام فيها الكفاية.

فقلت: أعتقد ذلك.

أمَّا أُمِّي فركَّزت على مسألة الأمن، فقال لها الرجل بوضوح: لم تتعرَّض قافلة لهجوم أبدًا، إنَّ أهل البلاد لا يحظَون بعُشر معشار ما يحظى به الغريب من حماية.

وأخذتُ في الاستعداد للرحلة مُسْترشِدًا بأستاذي الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير، وثانية بالملابس، وثالثة باللوازم، ومنها الدفاتر والأقلام والكتب، ورأيتُ أن يتمَّ زواج أمِّي بالشيخ قبل رحيلي، غير أنَّ الشيخ انتقل إلى السراي حتى لا تُهجَر بلا ساكن، ولبستني حال جديدة، فقَلَّ تفكيري في أحزاني، وهيمنَت الرحلة على حواسِّي، وانفسَح أمامي مجالٌ غير محدود للأمل.

دار المَشْرِق

ودَّعتني أمي وداعًا حارًّا دامعًا وهي تقول: أغنانا الله عن ذلك كُلِّه ولكنها إرادتك.

فقلتُ لنفسي: «على أيِّ حال لم أتركك وحدك.» وصحِبَني الشيخ مغاغة الجبيلي إلى ميدان المكوس فبلغناه قُبَيل الفجر، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل. امتدَّ الظلام حولنا يتنفَّس نسائم الرَّبيع، وفوقنا ترامقت النُّجوم الساهرة. همَس الشيخُ مغاغة في أُذني: لا تتخلَّف عن قافلة ابن حمديس.

على حين ارتفع صوتُ صاحب القافلة وهو يهتف: السَّيْر عَقِب صلاة الفجر.

ورآنا فصافحَنا وقال لي: جميع الرِّفاق من التجار، وأنت الرحَّالة الوحيد بيننا.

فلم يسُرَّني ذلك، ولم أتكدَّر له، وارتفع صوت الأذان مُحلِّقًا فوق الرءوس فمضينا نحو جامع السوق، وانتظمنا في آخر صلاة جامعة تُتاح لنا. وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتَّخذنا مَجالسَنا مع الحقائب. وبدأ الطابور يتحرَّك على إيقاعٍ حادٍّ فغاص قلبي بحنين الوداع وتحرَّكَت في أعماقه ذكريات أمي وحليمة في غِلاف من ذكريات الأسى الشامل الذي يحتوي وطني كله، وغمغمتُ في أحضان الظلام: اللهم بارك خُطاي.

وأخذَت الظلمة ترق، وتلوحُ بشائر النُّور الموعود في الأفق، حتى تخضَّب بحمرة باسمة وبزَغ حاجب الشمس ناشرًا الضياء فوق صَحْراء بلا حدود. تجلَّت القافلة خطًّا راقصًا في صفحة كونية متحدِّية بالجلال، وانغمر جسمي في حركة رتيبة مُتتابِعة تحت موجات من نور مُتدفِّق، وهواءٍ سابح، وحرارةٍ تتصاعد مُنذِرةً بالعنف، ومنظر ثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية. لُذت من المنظر الواحد بنفسي فغصتُ في ذكرياتها المُلحَّة وانفعالاتها المُرَّة، وأحلامها الورديَّة. وعند كلِّ عينِ ماءٍ كنا نتوقَّف للطعام والضوء والصلاة والسمر.

عرَفتُ نخبة من الرِّفاق التجار ورمقوا «الرحَّالة الوحيد» بنظرات غريبة. وقلت مُفسِّرًا ومُتباهيًا: سأذهب حتى دار الجبل.

فتساءل أحدهم باستهانة: وما دار الجبل؟

وقال ثانٍ بفَخَار: نحن دار الإسلام.

وقال ثالث: التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران.

وقال رابع: كان النبي عليه الصلاة والسلام تاجرًا.

فقلت كالمعتذر: وكان أيضا رَحَّالةً ومُهاجرًا.

فقال الأول: ستُبدِّد ثروتك في التَّرْحال وترجع إلى بيتك فقيرًا.

فقلت كاظمًا غيظي: لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل.

وكنت أحترم التجارة، ولكنَّني آمنتُ بأنَّ الحياة رحلة كما هي تجارة. وتتابعَت الأيام طويلةً وثقيلة، حارَّة بالنَّهار باردة بالليل، ورأيتُ النجوم كما لم أرَها من قبلُ جليلة ساحرة لا نهائية، وعرَفتُ أنَّ حزني من أمي أكبر مما تصوَّرت، وأنَّ حُبِّي لحليمة أقوى من أن يؤثِّر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلُّع نحو المجهول. وسرنا ما يُقارب الشهر حتى لاحت لنا من بُعد أسوارُ دارِ المشرق. عند ذاك قال القاني بن حمديس: سنُعسكِر عند العين الزرقاء، وندخل الدار عند منتصف الليل.

وأعددنا أنفسنا، ولمَّا صلَّينا العشاء سمعتُ من يهمس: آخر صلاة حتى نرجع من بلاد الوثنيَّة.

فامتعضتُ كثيرًا ولكني أُعِدُّ نفسي لحياة جديدة فقلت لنفسي: «الله غفور رحيم.»

وقُبَيل منتصف الليل تقدَّمَت القافلة من الدار الجديدة، وقابلنا عند المدخل رجلًا عاريَ الجسد إلَّا من وزْرة تستُر العورة، بدا طويلًا نحيلًا على ضوء المشاعل، وقال الرِّفاق: إنَّه مدير الجمرك. قال الرجل بصوت جهوري: أهلًا بكم في المشرق عاصمة دار المشرق، إنها تُرحِّب بالتجار والرحَّالة، ومن يلزَمْ حدودَه فلن يلقى إلَّا الطيِّب والجميل.

ودخلَت القافلة بين صفَّين من الحُرَّاس، فمضى التجار إلى السوق، ومضى بي دليل إلى فندق الغرباء. أناخ الجمل أمام سُرادِق كبير كأنه ثُكْنة، وحمَل الدليلُ حقائبي إلى الداخل؛ فأدركت أنه فندق الغرباء. كان سُرادِقًا كبيرًا مُنقسمًا إلى جناحين يفصل بينهما بَهْوٌ مُمتدٌّ، وكلُّ جناح يحوي غُرَفًا مُتلاصقة أضلاعها مبنيَّة من الأقمشة الوبريَّة. وكانت الحجرة التي اختيرت لي بسيطة بل بُدائية، أرضها رمليَّة، وبها فِراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض، وسَحَّارة للملابس، وشَلْتة في الوسط. وما إنْ فرغتُ من تفقُّد حقائبي حتى هُرعتُ

إلى الفِراش بحنينِ شخصٍ حُرِم من الرُّقادِ الطبيعيِّ شهرًا كاملًا، فنمتُ نومًا عميقًا حتى أيقظني حَرُّ النَّهار. ونهضتُ كالمتوعِّك، ومرقت إلى البَهْو فوجدته مكتظًّا، وقد جلسوا أمامَ حجراتهم يُفطرون. وجاءني رجل قصير لا يخلو من بدانة مُؤتزِرًا بما يُغطِّي العورة، وقال لي باسمًا: أنا فام صاحب الفندق، هل قضيتَ ليلة مريحة؟

فقلت والعَرَق يسيل فوق جبيني: شكرًا.

– هل آتيك بالفُطور؟

فقلت بلهفة: بل أريد الحمَّام.

وقادني إلى نهاية البَهْو فأزاح ستارة فوجدتُ ما يلزمني لأغتسل وأُمشِّط شعرَ رأسي ولحيتي الصغيرة. وعُدْتُ نحو غرفتي فوجدت فام قد جاء بطبليَّة وراح يُعِدُّ لي الفُطور. سألتُه: هل أستطيع أن أُصلِّي في غرفتي؟

فقال مُحذِّرًا: قد يراك أحد فتتعرض لِما يسوءُك.

وجاءني بإناء به تمرٌ ولبنٌ وفطيرةُ شَعِير، فأكلتُ بسرور حتى شبِعت، وقال لي: كنتُ ذات يوم ممَّن يعشقون الرحلات.

فسألته: أأنت من المشرق؟

– أصلي من الصَّحْراء، ثم استقرَّ بي المُقام في المشرق.

سرَّني أن أجدَ فيه رَحَّالة قديمًا فقلت: دار الجبل هي الهدف الأخير من رحلتي.

– وهي هدفُ الكثيرين، ولكن أسباب الرزق حجزَتني عنها.

فسألته بلهفة: ماذا تعرف عنها يا سيد فام؟

فأجاب باسمًا: لا شيء إلَّا ما تُوصف به أحيانًا كأنَّما هي معجزة الدهر، ومع ذلك فلم أُصادِف رجلًا واحدًا ممن زاروها.

وقال لي بصوتٍ باطنيٍّ بأنني سأكون أولَ ابنٍ لآدم يُتاح له أن يطوف بدار الجبل، ثم يعلن سِرَّها للعالَمين. وسألني: هل تمكث طويلًا في المشرق؟

– عشرة أيام ثم أذهب مع قافلة القاني بن حمديس.

– عظيم، سِرْ وانظرْ وتمتَّعْ بوقتك، وحسبك غطاءٌ للعورة ولا تزِدْ عن ذلك.

فقلت مستنكرًا: لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة.

فقال ضاحكًا: سترى بنفسك، نسيتُ أن أسألك عن اسمك الكريم.

– قنديل محمد العنَّابي.

فرفع يده إلى رأسه تحيةً وذهب. غادرت الفندق في الضُّحى مُتلفِّعًا بعباءة خفيفة واسعة المسامِّ، لابسًا عِمامتي لتقيَني الشمس. وأنا أعجب من حرارة الرَّبيع، وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون. ولدى مُغادَرتي الفندقَ هالني أمران؛ العُرْي والفراغ.

النَّاس، النِّساء منهم والرِّجال على السواء، عرايا تمامًا كما ولدَتهم أمهاتُهم. والعُرْي عادةٌ مألوفة، لا تَلفِت نظرًا ولا تُثير اهتمامًا، وكلٌّ ذاهبٌ لوِجهته، ولا يُثير الغرابة إلَّا الغرباء أمثالي لما يرتدون من ملابس. والأجساد نُحاسية اللون، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلَّة الغذاء فيما يبدو، وإن غلب عليهم الرضا بل والمرح. وجدتُ مشقَّة لأُزيل عن وجداني الشعور بالشذوذ لملابسي التي أرفُل فيها، ووجدتُ مشقَّة أكبر في صرف بصري عن مشاهد العُرْي المثيرة، وما بعثَت في دمائي من نيرانٍ مُتأجِّجة. وقلت لنفسي: يا لها من دارٍ تقذف بمن كان في شبابي إلى فتنة مُحرِقة!

أمَّا الأمر الغريب الثاني فهو هذا الفراغ المُمتد المُترامي، كأنما انتقلت من صَحْراء إلى صَحْراء. أهذه هي حقًّا عاصمة المشرق؟ أين القصور؟ أين البيوت؟ أين الشوارع؟ أين الحواري؟ لا شيء إلا أرضٌ تعلو جوانبَ منها أعشابٌ ترعاها الماشية، وثمَّة تجمُّعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام، يتجمَّع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز، وهنَّ عرايا أيضًا، وجمالهن لا بأس به، ولكن تُخفيه القذارة والإهمال والفقر. الحق أني لم أتمادَ في نقد مظاهر البؤس في هذا البلدِ الوثنيِّ الذي قد يكون له من وثنيَّته عُذْر، ولكن أي عُذرٍ أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر في بلدي الإسلامي؟ وقلت لنفسي: انظر وسجِّل واعترف بالحقيقة المرَّة.

وفيما عيناي تدوران في حيرة ودهشة، استحوذ عليَّ شعورٌ بالهيمان استخرج من أعماقي العاشق الكامن. تذكرتُ حليمة بقوة مهيمنة وغشِيَت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعة الشمس. وحِرتُ من أمري وقتًا، ولكني لمحتُ فتاةً تعدو قادمةً من ناحية الفندق مُتَّجِهة كالسهم نحو بقعة مزدحمة، وغاصت في عُبابها، فتوارت عن عينيَّ. لعلِّي لمحتُها وهي ذاهبة أيضًا. لعلِّي لمحتُها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثَرَها وأنا شِبهُ نائمٍ أو ذاهل. إنها وراء ما اجتاحني من انفعال عميق، حقًّا إنها مشرقية نُحاسية عارية، ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جدًّا من صورة حليمة حبيبتي المفقودة، بل قررتُ أن أقتنع بأنها حليمة المشرق، وأنني سأراها مرَّة أخرى. وانتقلت من مكان إلى مكان، لا أرى جديدًا، أكابد فتورًا يتزايد، وقلبي ينسحق تحت الأسى والشجن، وخيالي يبحث عن حليمة المشرق. في الغربة أتخلَّق من جديد في صورة جديدة، تتكوَّن في أعماقي اندفاعات جريئة لإشباع الرَّغبات

وممارسة المغامرات. إني أتخلَّى عن حضارة وأسلِّم لحضارة جديدة، أتوق إلى الحياة بعيدًا عن الرقباء الذين يتجسَّدون في الخارج، والذين ينبضون في الداخل. ووجدتُني عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدري كيف ساقتني إليه قدماي المُتعبَتان. خلاء نظيف خالٍ من الماشية ومن الرعاة تحفُّ به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أرَ مثلها من قبل، ويقوم في أعماقه قصر ذو سور محيط، يحرس مداخله طابور من الفُرسان المُدجَّجين بالسلاح. ولم يكن بالساحة إلا نفَرٌ من الغرباء أمثالي يُقلِّبون أعينهم في دهشة وإعجاب، كيف قام هذا القصر بين الخيام؟ .. إنه ولا شكَّ قصر ملِك المشرق، وطبعًا غير مسموح بزيارته، وكنت ظننتُ أن رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يُقيم في خيمة تُناسبه حجمًا وأناقة. سألت أحد الغرباء: أهو قصر الملك؟

فأجاب باهتمام: هذا ما يبدو.

الحقُّ أنه لا يقلُّ فخامةً عن قصر الوالي في وطني، ولكنه يبدو غريبًا مقطوع الصلة بما حوله. وأخذ الجوُّ يلطُف، ويُسفِر عن وجهه الربيعيِّ، ولكن شعوري بالتعب والجوع انفجر كالغول فرجَعتُ ألتمس سبيلي إلى الفندق. ووجدتُ فام صاحب الفندق جالسًا على أريكة من سَعَف النخل عند المدخَل، فلاقاني بابتسامة وقال: هل تناولت غداءك في السوق؟

فقلت بعجَلة: لم أعرف موقع السوق بعد، والجوع ينهشني أيها الرجل الكريم.

وجلست أمام الطبلية أمام حجرتي فجاءني فام بخُبزِ الشعير، وشريحة من لحم البقر مقليَّة في الدهن مُخفَّفة بالخل، وطبقٍ مليءٍ تمرًا وسَفَرْجلًا وعنبًا، وسألني: هل آتيك بخمر البلح؟

فقلتُ وأنا أُقبِل على الطعام بنهَم: أعوذ بالله.

فتمتم الرجل: الخمر موسيقى الرحلات.

أكلتُ حتى شبعت، واستأذنته في الجلوس معه على الأريكة، فرحَّب بي جدًّا، فجلسنا والمساء يتيه بقمرٍ يوشك أن يصير بدرًا. تلقَّيت نسائمَ عذبةً غريبةً كلَّ الغرابة عن قَيْظ النهار، وسرعان ما زحف عليَّ الهدوء والاسترخاء. قال فام: توجد خيام للضرب والرقص وما يتمنَّاه الغريب.

فقلت: فلنؤجِّل ذلك إلى وقته.

– هل أعجبك ما رأيت؟

فقلت بفتور: لا شيء يستحقُّ المشاهدة سوى القصر، ولكني بحاجة إلى معلومات لا يُعثَر عليها عادة في الطريق.

– صدقت فيما قلت.

– قصر الملك آية من الآيات.

فقال باسمًا: لا يوجد مِلِك في دار المشرق.

لعلَّه قرأ الدهشة في وجهي فواصَل: دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن، لكلِّ مدينة «سيد» هو مالكها، يملك المراعي والماشية والرُّعاة، النَّاس عبيده، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرِّزق والأمن، فالقصر الذي شاهدتَ هو قصر سيد العاصمة، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم، ولكل سيِّد قوة مُسلَّحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصَّحْراء.

يا له من نظام غريب! إنَّه يُذكِّرني بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف، كما يُذكِّرني بمُلَّاك الأرض في وطني، ولكنه مختلف أيضًا. جميعها تُمثِّل درجات متفاوتة من الظلم، وعلى أيٍّ فإثمنا — نحن دار الوحي — أفظع من سائر الخلق. وأخذتُ حذَري فاكتفيتُ بالإصغاء حابسًا ملاحظاتي النَّقدية كما يجدُر بالغريب. وسألته: كيف شُيِّد هذا القصر الباهر وجميع رعيَّته من الرُّعاة البسطاء؟

فأجاب فام في مُباهاة: جاء بالمهندسين والعمال من دار الحيرة، وزوَّده بأجمل الأثاث والتحف التي تفخر بصنعها دار الحلبة.

وصمتُّ قليلًا ثم قلت: حدِّثني يا سيد فام عن دينكم.

– أهل المَشْرِق جميعًا يعبدون القمر، في ليلة البدر يتجلَّى الإله في تمامه فيُهرَعون إلى الخلاء، ويحيطون بالكاهن للصلاة، ثم يمارسون طقوسه رقصًا وغناءً وسُكرًا وغرامًا.

فذهِلتُ كثيرًا ثم تساءلت: وبذلك يضمنون الخلود في الجنة؟

– لا نعرف خلودًا ولا جَنَّة، وليس لنا إلا ليلة البدر.

فتردَّدتُ قليلًا ثم سألت: ألا يوجد طبٌّ وتعليم؟

فقال باستهانة: أبناء السيد يتعلَّمون الفروسية، ومعلومات عن الإله القمر، وفي كل قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة، أمَّا الناس فيُتركون للطبيعة، ومن يُصبه مرض يُعزَل حتى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح.

فنظرتُ إليه كالمتسائل فاستدرك: إنها سُنَّة القمر وتعاليمه، وهي تتوافق مع الحياة تمامًا، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضا، نحن أسعد الشعوب يا سيد قنديل.

قلت لنفسي: إنه فُقدان الوعي بلا زيادة ولا نقصان، ولكني قلت له: هنيئًا لكم يا سيد فام!

وقضيتُ شطرًا من الليل وأنا أُدوِّن في دفتري تاريخ الرحلة ومَشاهدها، وقطعتُ شطرًا آخَر مُسهَّدًا، أُفكِّر فيما صادفني من أحوالٍ وأفكار، وأتأمَّل عذابات الإنسان في هذه الحياة، وأتساءل هل حقًّا يوجد في دار الجبل الدواء الشافي لكل داء؟!

ومَرَّت أيامٌ بلا جديد سوى أنني وجدت الشجاعة على التخفُّف من ملابسي مكتفيًا بسروالٍ قصير وطاقية. وذات صباح دهمَتني حركةٌ غيرُ عاديَّة مُنبثَّة في الأرجاء، وتهامس حميم بين النزلاء حتى هُرعتُ إلى فام أسأله عمَّا هنالك فهتف: هذه ليلة البدر .. ليلة حضور الإله والعبادة.

فهزَّني الخبر، ووعدني بمشهد سعيد حقًّا مَن يراه، وذهبتُ من فوري إلى السوق، فالتقيتُ برفاقي التجار المُعسكرين عند مدخَله، كانوا يُنفِقون نهارهم في العمل وليلَهم في الملاهي. وسرعان ما انهمكوا في المقايضة بهمَّة وخبرة. ولاحظتُ أنهم لا يتعاملون مع الأهالي، ولكن مع مندوبي السيد صاحب العاصمة، فهو البائع والشاري وحده. أمَّا بقية السوق فعبارة عن ممرٍّ أُقيمت على جانبيه خيامٌ لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحُليِّ الرخيصة من الخرز. وتناولتُ غدائي في الفندق، ثم ذهبتُ إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب. وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون في كثافة هائلة في شكل دائرة تُرك وسطها خاليًا. كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النُّحاسية تنضح بالعَرَق، وتنفث في الجو رائحة آدميَّة مثيرة. وقبل المغيب ركضَت سُحُب فحجبَت القبَّة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهُتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المُترَعة بالإيمان والتحفُّز للمغامرة. وما إن غابت الشمس في ناحيةٍ حتى تهادى البدر صاعدًا من الناحية المقابلة عظيمًا جليلًا عذبًا واعدًا؛ فهلَّل النَّاس حتى ذُعِرَت الطيور في الجو. مضى يصعد مُرسِلًا ضوءه الذهبيَّ على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح. ومرَّ وقتٌ غير قصير في صمت خاشع، حتى استقرَّ القمر في كبد السماء. عند ذلك ندَّ صوتٌ مُنذِرٌ طويلٌ عن بوق في مكان ما، فانشق طريق في شمال الدائرة موسعًا لقادمٍ وقور، طويل القامة، مُرسَل اللحية، منفوش الشعر، عاري الجسد، تَقدَّم مُتوكِّئًا على عصًا طويلة حتى وقف في مركز الدائرة، تركَّزَت الأعين على كاهن القمر، وازداد الصمتُ صمتًا. ولبِثَ الرجل فترةً جامدًا، وترك عصاه تسقط عند قدميه، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبِعَته الآلاف المؤلَّفة من الأذرع. وصفَّق بيدَيه فانطلق من الحناجر نشيدٌ واحد في لحظة واحدة. انطلق بقوَّة وشمول فكأن الأرض والسماء وما بينهما قد شاركت فيه منتشيةً بسُكْر الغناء ووَجْد العاشقين. وانسربَت إلى أعماقي

نغمة مُفْعَمة بالحرارة، مميزة الوحشية والخشونة، مجللة بِدويٍّ وأصداء، فجاش صدري بانفعالات ترتعش باللذة والرهبة، وتصاعدت لذروة الانفجار، ثم أخذت في الهبوط الوئيد، خُطوةً إثرَ خُطوة، حتى استنامت للهدوء، وغاصت في الصمت. وأنزل الكاهن ذراعَيه ونظر فيما أمامه، فتبِعَته الأذرع وتحوَّلت إليه الأعين، والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول: ها هو الإله يتجلَّى بجماله وجلاله، يحضُر في ميعاده، لا يتخلَّى عن عباده، فنِعْمَ الإله وهنيئًا للعباد.

ندَّت عن البحر المحيط همهمةُ شُكرٍ، فواصل الكاهن حديثه: إنه يقول لنا في دورته إنَّ الحياة لا تعرف الدوام، وإنها نحو المحاق تسير، ولكنها طيبة للطيب، وبسمة للباسم، فلا تُبدِّدوا ثروتها في الحماقة.

انطلقَت من الحناجر زغاريدُ كالشُّهُب، وصفَّقَت الأيدي على إيقاع راقص، واستمرَّ الكاهن يقول: حذارِ من الخصام، حذارِ من الشرِّ، الحقدُ يفري الكبد، النَّهَم يُتخِم البطن ويجلب الداء، الطمعُ هَمٌّ وبيل، امرحوا، والعبوا، وانتصروا على الوساوس بالرضا.

وفي الحال ترامت دقَّاتُ طبول، فاهتزَّت الخواصر راقصةً، ولبَّت نداءها الأثداءُ والأرداف، وتمادت حركة منتشرة مترامية تحت ضوء القمر. رقصَت الأرض وبارَكها البدر، واختلط العناقُ بالرَّقص، واندمج الجميع في غرامٍ شاملٍ تحت ضوء القمر. جعلتُ أنظر بعينين ذاهلتين، كأنني في حلم شباب، دمي يشتعل في عروقي، ورغباتي تتلاطم في جنون، وقلبي يتوق إلى الجنون، ورجعتُ وأنا أترنَّح من شدة الانفعال، وقبضة الشهوة تشدُّ بعنفٍ على أعصابي الملتهبة، ولبِثتُ في غرفتي بالفندق ساهرًا على ضوء شمعة، أدوِّن كلماتٍ في دفتري، وأفكِّر في المحَن التي تتربَّص بإيماني وتقواي، وأتذكَّر عهد تربيتي الدينية والعقلية على يدِ الشيخ مغاغة الجبيلي. واستسلمتُ لأفكاري في استرخاء بائس حتى اخترقت أُذنيَّ بغتةً صرخةُ استغاثة. وثَبْتُ قائمًا مُتحفِّزًا فوجدتُني في ظلام دامس، وسرعان ما انتبهتُ إلى أنني كنت نائمًا، بل إن النوم كان يغشَى الكون كله. واستيقظتُ مُبكِّرًا، وقلتُ لفام وأنا أهمُّ بمغادرة الفندق: هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة؟

فقال فام: هو كاهن القمر، يُرحِّب دائمًا بلقاء الغرباء، سأُعِدُّ لك لقاءً معه.

وذهبتُ إلى السُّوق فلم أجد أحدًا من التجار، وأخبرني القاني بن حمديس أنهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب السيد. وسألني: هل قرَّرتَ أن ترحل مع قافلتي؟

فأجبتُ بتلقائية: أجل، لا شيء يستحقُّ المشاهدة بعد.

– صدقت فهو بلد فقير، ولكن الرِّحلات القادمة تَعِد بمشاهدَ ثريَّة.

فقلتُ بصدق: ما يهمني حقًّا هو دار الجبل.

فابتسم قائلًا: متَّعك الله بأجمل ما خلق.

واشتدت وَطْأة الملل والحر، فرحت أُسلِّي نفسي بالمشي في السوق. ورغمًا عني توقَّفتُ مذهولًا أمام خيمةِ رجلٍ عجوزٍ يعرِض التمر في أوعية من الخوص. لمحتُ وراءه في عمق الخيمة الفتاةَ الفاتنة، حليمة المشرق النحاسية العارية، وهي تزقُّ حمامة، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذي لم ينَلْ منه السوء بعدُ. وقفتُ مُحملِقًا ناسيًا ذاتي، أرى الماثلة أمام عينيَّ، وأتذكَّر خلالها حليمة بوجهها البدري وعينيها السوداوين وعُنقها الطويل. أرى تاريخ قلبي كلَّه مُتجمِّعًا في لحظة ومثال، وقد التقى في بؤرته يقَظة الماضي وسِحر الحاضر وحُلم المستقبل. أي هُيام ينسكب في روحي من هذا التكوين الفريد! أي نداء وأي أَسْر! رنوت إليها غارقًا فيها، مُتجاهلًا أباها العجوز، وحيائي العتيق، وما أُلزم نفسي به من قيود الأدب. ونسيتُ تمامًا الملَ والحرَّ والخطط، وأحلام الرحلة، وحلم الجبل، وحتى الآمال المدَّخَرة من أجل الوطن. نسيتُ كلَّ شيء لأني ملكتُ كلَّ شيءٍ وطواني في صدره الرضا والقناعة والغنى. وتراجعَت الفتاة حتى توارت عن ناظِرَيَّ فوجدتُ نفسي منفردًا بنظراتِ العجوز الثابتة. باخ جنوني السعيد فسقطتُ في قبضة الحياة اليوميَّة ذات الوسواس والعرق، ومضيتُ أبتعد. وأدركني صوتُ هرِمٍ ينادي: يا غريب!

فقلت لنفسي: في المحذور وقعت. وتلفَّتُّ مُتوقِّفًا. قال برقَّة: تعالَ.

فدنوت منه في حياء، فسألني: ألم تُعجِبْك ابنتي عروسة؟!

فانعقد لساني دهشةً، ولم أُجِبْ فعاد سائلًا: ألم تُعجبك عروسة؟ .. لا مثيل لها في المشرق!

تمتمتُ بارتباك: معذرة!

فقال بفَخَار: ما رآها شابٌّ إلا أحبها.

فقلتُ مُعتذِرًا وأنا أظنُّه يسخر مني: ما قصدتُ سوءًا قط.

فقال العجوز بحدَّة: لا أفهم لغة الغرباء، أجِبْني، هل أعجبَتك؟

فتردَّدتُ مليًّا ثم قلت: إنها تستحق الإعجاب كلَّه.

– أجِبْني بصراحة، هل أعجبتك؟

فحنيتُ رأسي مُعترِفًا فقال: ادخل.

ترَدَّدتُ؛ فتناول يدي وجذبني إلى الداخل. ونادى عروسة فجاءت بجسمها العاري وجعلَت ترنو إليَّ، حتى سألها: ما رأيك في هذا الغريب المُغرَم بكِ؟

فأجابت بلا حياءٍ ولا تلعثُم: إنه مطلوبي يا أبي.

فضحك العجوز قائلًا: أخيرًا نوَّركِ القمر.

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدَل علينا ستارًا. وجدتُني مُنفرِدًا بها في أمانٍ كما بدا، ولكن في حيرة أفسدَت عليَّ السعادة المُتاحة الشاملة. أيعني هذا الزَّواجَ في هذه الدار؟ أيعني إباحيَّةً كالتي شهِدتُها تُمارَس تحت ضوء القمر؟ وراحت تنظر إليَّ وتنتظر، وحبي يهفو إليها من تحت غشاء القلق. وسألتها: ما معنى هذا يا عروسة؟

سألَتني: ما اسمك؟ ومن أيِّ البلاد أنت؟

– اسمي قنديل، ومن دار السلام.

– عمَّ تسأل؟

فسألتها وأنا أُشير إلى الخارج: أهو أبوك؟

– نعم.

– أي عَلاقةٍ بيننا الآن؟

– عرَف أبي أنك تُعجبني فدفعك إليَّ؟

– هذا هو المُتَّبَع هنا؟

– طبعًا.

– وماذا بعد ذلك؟

– لا أدري، لكن لماذا تُغطِّي وسطك بهذه الوزْرة؟

وراحت تنزِعها بازدراء، ووقفنا نترامق، وفجأة ركعتُ طارحًا على عاتقيَّ كلَّ هَمٍّ، وضممتُ ساقيها إلى صدري، وعند الظهيرة قال لي الأب: ادعُنا إلى الغداء.

فذهبت وجئتُ بلحمٍ، وفاكهة، وتناولنا طعامنا كأسرة واحدة. وعَقِب استراحة قصيرة قال العجوز: اذهب مصحوبًا بالسلامة.

فسألته بقلق: هل آتي غدًا؟

فقال دون مُبالاة: هذا شأنها وشأنك.

رجَعتُ إلى الفندق فاقدَ القلبِ والعقل. تلخَّصَت الحياة كلُّها في عروسة. والتمستُ عند فام مزيدًا من الضوء فقال: هذه العَلاقة تُمارَس هنا بلا قيود، ما إن تُعجَب فتاةٌ بفتًى

حتى تدعوَه على مرأًى ومسمعٍ من أهلها، وتنبذه إذا انصرفَت عنه نفسُها محتفظةً بالذريَّة التي تُنسَب إليها.

وكرهتُ ذلك من صميم قلبي غير أنَّ فام قطَعَ عليَّ أفكاري قائلًا: سنذهب عصرًا إلى كاهن القمر وهو يُرحِّب بك.

كان حماسي لِلِّقاء قد فتَر شيئًا ما، ولكني استعنتُ عليه بالعزيمة حتى أُنجز كتاب رحلتي على أكمل وجه، واصطحبني فام عصرًا على خيمة الكاهن التي قامت في بُقعة خالية، وكان يجلس متربِّعًا على فروة أمام مدخَلها فرمقني مُتمعِّنًا وقال: اجلس .. أهلًا بك.

وفارقنا فام فقال الكاهن: أخبرَني فام أنَّك تُدعى قنديل محمد العنَّابي، وأنك من دار الإسلام.

فقلت مُتودِّدًا: هذا حق.

فقال وهو ينفُذ بعينيه في صدري: واضح أنك تجري وراء المعلومات شأن الرحَّالة الغريب!

فقلتُ برقَّة: عند الحكيم تُوجد المعاني التي تخفى على المُشاهِد العابر.

فقال بهدوء: كن صريحًا، ولا خوف عليك؛ فلن تخرج المعاني إلا لمن يطرُق الباب بصدق.

تفكَّرتُ مَليًّا ثم قلت بادئًا بالموضوع الذي يستغرقني: أَعجبُ ما صادفني في المشرق عَلاقة الرجل بالمرأة.

فابتسم قائلًا: نصف المصائب في البلدان إن لم يكن كلُّها تجيء من القيود المُكَبِّلة للشهوة، فإذا شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوًا ورضًا!

فقلت بحذر: في دارنا يأمرنا الله بغير ذلك.

– عرَفتُ أشياءَ عن داركم، عندكم الزَّواج وكثيرًا ما يتمخَّض عن مآسٍ مؤسِفة، والناجح منه يستمرُّ بفضل الصبر، كلَّا يا صاحبي، حياتنا أبسط وأسعد.

فتساءلتُ بقلق: قد تزهد المرأة عندكم في رجُلها، وهو ما زال مُقيمًا على حُبِّها؟

– النساء كثيرات، والسلو يسير، كل متاعبكم تجيء من الحرمان.

– حتى الحيوان يغارُ على شريكته.

فابتسم قائلًا: يجب أن نكون أفضل من الحيوان.

فتمتمتُ وأنا أُخفِي تقزُّزي: لا سبيل إلى التلاقي.

– إني مُسَلِّم بهذا، ولكن عليك أن تفهمنا جيدًا، إننا نَنشُد البساطة واللعب، وإلهنا لا يتدخَّل في شئوننا، إنه يقول لنا كلمة واحدة وهي أنه لا شيء يدوم في الحياة، وأنها إلى محاقٍ تسير، بذلك أشار إلى الطريق في صمت، أن نجعل من حياتنا لعبًا ورضًا.

فقلتُ مُتشجِّعًا بحرارة الحديث: لقد سمعتُ موعظتك، ووجدتُها لا تنطبق على السيد المالك لكلِّ شيء.

فهزَّ رأسه في أسًى وقال: كثيرًا ما يحوم الغُرباء حول ذلك، ولكن السيد هو الذي يدفع عن الدار هجمات البدو، وهو — وبقية السادة — أملنا في التصدِّي لأطماع دار مثل دار الحيرة، أجل الحرب تتهددنا، والسَّادة هم الذين يُعِدُّون أنفسهم للدفاع، وهم أيضًا الذين يتصدَّون لأيِّ عدوان في الداخل فيُهيِّئون للعبيد حياةً آمنة، هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كلَّ شيء، ليُنفقوا على السلاح والجنود والمرتزقة؟!

فقلتُ مُتحدِّيًا: يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافَّةً حقوقَهم ويُعِدُّهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة.

فمطَّ الرجل شفتَيه مضمومتَين، وقال بحسم: الكائنات في دارنا أنواع: نبات، وحيوان، وعبيد، وسادة، ولكلِّ نوعٍ أصلٌ يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى.

فقلت وأنا في غاية الاستياء: الناس عندنا إخوة من أبٍ واحد، وأمٍّ واحدة، لا فرقَ في ذلك بين الحاكم وأقلِّ الخلق شأنًا.

فلوَّح بيدِه استهانةً وقال: لستَ أوَّلَ مُسْلمٍ أحادثه، إني أعرف عنكم أشياءَ وأشياءَ، ما قلت هو حقًّا شِعاركم، ولكن هل يوجد لتلك الأخوَّة المزعومة أثرٌ في المعاملة بين الناس؟

فقلت بحرارة وقد تلقَّيتُ طعنةً نجلاء: إنه ليس شعارًا ولكنه دين.

فقال ساخرًا: ديننا لا يدَّعي ما لا يُسْتطاع تطبيقه.

فقلتُ وقد شدَّتني الصَّراحة إلى أعماقها: إنك رجل حكيم، إني أعجب كيف تعبد القمر، وتتصوَّر أنه إله؟!

فقال بجِديَّة وحِدَّة لأول مرة: إننا نراه ونفهم لغته، هل ترون إلهكم؟

– إنه فوق العقل والحواس.

فقال باسمًا: إذن فهو لا شيء.

كدتُ ألطمه، ولكني كظمتُ حنَقي واستغفرتُ ربِّي، وقلتُ: إني أسأل الله لك الهداية.

فقال باسمًا: وإني أسأل إلهي لك الهداية.

وصافحته مُودِّعًا، ورجَعتُ إلى الفندق ثائر الأعصاب مُوجَع القلب، وعاهدتُ نفسي أن أسمع — في رحلتي — كثيرًا وأن أناقش قليلًا أو لا أناقش على الإطلاق. وقلتُ لنفسي مُتحسِّرًا: ديننا عظيمٌ وحياتنا وثنيَّة.

ومع اليوم التالي ذهبتُ مُبكِّرًا إلى السوق، إلى خيمة عروسة، رحَّب بي العجوز باسمًا، وقالت عروسة بدلال: تأخَّرتَ حتى قلتُ إنه هرب.

ولثمتُ ثغرها، فهَمَّت بالذَّهاب إلى رُكننا المستور، ولكني أوقفتُها وقلت لأبيها: يا والدي أُريد أن أتزوَّج من عروسة.

فقهقه العجوز فاضحًا فاه المثرم، وقال: كما تفعلون في بلادكم؟

– أجل، وفي تلك الحال سأصطحبها معي في رحلتي حتى نرجع معًا إلى وطني.

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل: ماذا تريدين يا عروسة؟

فقالت عروسة بسرور: تحت شرط أن يتعهَّد بإرجاعي إلى المشرق إذا راق لي ذلك.

فقلت بلا تردُّد: لكِ هذا يا عروسة.

– ولكني لا أملك حقَّ الموافقة النهائية، فنحنُ جميعًا عبيد السيد وهو مالكنا الشرعي، فاذهب إلى القصر، واعرض على الحاجب شراء عروسة.

اعترضتني هذه العقبة التي لم ترِدْ لي بحِسْبان، ولكنني لم أجد بُدًّا من تذليلها، وأمضيتُ نصف النهار مع عروسة في سعادة وراحة عميقَين. ولمَّا رجعتُ إلى الفندق أفضيتُ إلى فام بما يشغلني، فوعد باصطحابي إلى الحاجب. هكذا قُدِّرَ لي أن أعبرَ باب القصر، وأن أشهد جانبًا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها، وأنا في طريقي إلى ركن الحاجب. كان يجلس في صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد، مفروشة بالوسائد والمساند النَّاعمة. كان فوق الستين، بدينًا ثقيلَ النَّظرة، مُغلَّفًا بالعُزلة والكبرياء. لثم فام يده وعرض مطلبي، ولكن الحاجب لوَّح بيده رافضًا، وقال: منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد.

ونظر إليَّ وقال: انضمَّ إلينا إذا شئتَ كما فعَل فام، فتندرج في جملة العبيد، وتتمتَّع بالأمن والرضا والجارية معًا.

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة والشجَن. وقال لي فام ونحن ماضون نحو الفندق: استمتع بفتاتك حتى تشبع، وسرعان ما تشبع.

فضاعَف من أحزاني وهو لا يدري، وواصَل حديثه قائلًا: لم يكن الوقت مناسبًا لإنجاح مسعاك فثمَّة أنباء عن تحفُّز الحيرة لإعلان الحرب علينا.

فسألته بقلق: وما الأسباب وراء ذلك؟

فضحك بمرارة قائلًا: الطمع في كنوز السادة والمراعي الغنيَّة، ولن تعوزهم علَّة يَعتلُّون بها.

وساورني القلق فزاد من متاعب قلبي، وافترقنا عند أقرب نقطة إلى السوق، فذهبت إلى خيمة عروسة من فوري، واستقبَلني العجوز مُتفحِّصًا وجهي فقال: خاب مسعاك والقمر.

وضحكَت عروسة ضحكة لا معنى لها، فردَّدت بأسف: خاب مسعاي.

فقال العجوز ضاحكًا وهو يومئ إلى عروسة: إنها تنتظرك!

فقلت بأَسًى: يعزُّ عليَّ أن تكون عَلاقتي بها عابرة.

فقال العجوز ساخرًا: كلُّ عَلاقة عابرة يا غريب.

فقلت بحرارة: تمنَّيت أن تكون دائمة.

فقال مقهقهًا: يا لكَ من رَحَّالة أناني.

ثم وهو يواصل القهقهة: حذارِ من التعقيدات؛ فنحن قوم بُسطاء ونحب البساطة.

– كأنكم لا تعرفون الحب.

– نعرف أنه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام في الأحوال الجنونية. فماذا تريد أكثر من ذلك؟

سألتُه جادًّا: ماذا تقترح لمجنونٍ مثلي؟

– استأجرها لمدَّة تتجدَّد حتى تنتهي.

– هل أرجع في ذلك إلى الحاجب أيضًا؟

– كلَّا، هذا حقي بصفتي والدها، أيَّ مدَّةٍ تريد؟

– أطول مدة ممكنة.

– استأجِرها شهرًا بشهر.

– ليكن.

– ولكنَّ الاتفاق ينتهي حال ترغب هي في ذلك.

فحنيتُ رأسي موافقًا فقال: الشهر بثلاثة دنانير.

تم الاتفاق ومضيتُ بعروسة إلى حجرتي بالفندق. صمَّمتُ على ألَّا أُفسِد سعادتي، وأن أعتبر الساعة الرَّاهنة هي العمر كله، ولكني قلت لها برجاء: دعيني أستر جمال جسدك.

فقالت بانزعاج: لا تجعل مني أضحوكة.

فتراجعتُ مُسلِّمًا بكل شيء. وتراءت لي وهمًا سعيدًا، يُنذِر بالزَّوال فلُذْتُ بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن، ولكنَّ الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب. وكانت تُحِبُّ الانطلاق في المراعي، والتجوُّل في السوق، فسرنا معًا في حبور. ورآني القاني بن حمديس، فأقبَل نحوي قائلًا: نحن راحلون مع الفجر.

فقلتُ في حياء: ولكنني باقٍ.

فقال ضاحكًا: ستجد قافلةً كلَّ عشرة أيام.

إني مُستغرِق بالحب ولا شأن لي بالزمن. لا أهمية الآن للرحلة ولا للمهمَّة، ولو بقِيت لآخر العمر. وها هي بشائر الأمومة تهلُّ بأفراحها القلبية وأسقامها الجسدية، فأستعيذ بها من تقلُّبات القلوب وجوامح الأهواء، وأطمح إلى حياة مُستقِرَّة، ولو ربطَتني في النِّهاية بالمشرق، وغيرت بشرتي وأحلامي. وقلت ساخرًا من نفسي: يبدو أنني خُلقتُ للحب لا للرحلات.

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر، وهُرع العباد إلى ساحة العبادة. ذهبنا إلى الساحة زوجين حتى انحشرنا في الزحام. هناك قالت لي بجِديَّة: هذه ليلة الإله ينفصل فيها القرين عن قرينه.

وفرَّت من بين يديَّ فذابت في الجموع، لبثتُ وحيدًا مُضطربًا غاضبًا، مسلوبَ الإرادة والسرور، وتتابعَت الطقوس، وأنا أتساءل عمَّا تفعله مع آخَر غريب. ولمَّا جاءت ساعة العناق تعرَّضَت لي امرأة في الأربعين على شيء من الجمال، وفتحَت لي ذراعيها. رأيتُ فيما يقع لي ما يقع مع عروسة في مكان ما. ودار السُّقاة بخمر البلح فشربتُ قدَحًا، فغبتُ عن وعيي واندمجتُ في صلاة المشرق. وعند الفجر تكوَّمتُ مُقرفصًا عند مدخَل الفندق حتى وافتني عروسة وهي تترنَّح. نهضتُ إليها واجمًا، فتأبَّطَت ذراعي إلى حجرتنا وهي تسألني: أعجبتك المرأة؟

فقلت بمرارة: لقد نجَّسنا عَلاقةً مقدَّسةً يا عروسة.

فقالت بانزعاج: إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لي في ذلك.

ثم أقبلَت عليَّ باسمةً وهي تقول: ما زلتُ أُحِبُّك، ما زلتَ رَجُلي الوحيد.

أعترف بأنَّ حُبِّي لم يضعف، وبأنَّ الخوف من الفراق كان يُلهبه. باتت سعادتي وشقائي. وحرقني الصيف فهو جحيم، وفيه تنمحق الخضرة، وتقتات الماشية على المخزون المُجفَّف من الأعشاب، ويجيء الخريف فتهدأ النيران قليلًا، ويسقط الرذاذ من حين لحين، ثم يُقبل الشتاء بجوِّه اللطيف المعتدل وأمطاره الغزيرة، فتحيا الأرض وتطرَب الماشية

ويظلُّ العُراة عُراة. وتنجب عروسة وليدها الأول فيُسمَّى «رام بن عروسة» كأنما أنجبَته وحدها ولا شأن لي به. ويقول لي أبوها: ها أنت تدخل في عامك الثاني، وهي ما زالت تُحِبُّك، أأنت ساحر يا غريب!

وبزغَت بشائر أمومة جديدة فجاء «عام بن عروسة»، وتبِعه بعدَ عام «لام بن عروسة»، وحملَت للمرَّة الرابعة حتى اشتهرت عَلاقتنا بين القوم بالشذوذ، وقيل إني أشدُّها إليَّ بقوة السحر الذي لُقِّنتُه من دار الإسلام، وانسقتُ وأنا لا أدري إلى تربية «رام» على مبادئ الإسلام. وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه؛ لِما أُوفِّره له من عناية وغذاء، وقد أعطى مثالًا لما كان ينبغي أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية. كفَّرتُ بتلقينه مبادئ الإسلام عن إهمالي الاضطراريِّ لعقيدتي، احترامًا للبلد الذي يؤويني، غير أنَّ عروسة لم تُخْفِ استياءها وقالت لي بجِديَّة: إنك تُنشئه على الكفر، وتُعِدُّه لحياة تعيسة في بلده.

فقلت برقَّة: إني أُنقذ روحه كما تمنيتُ أن أُنقذ روحك ذات يوم.

فقالت بصرامة: لن أسمح لك بهذا أبدًا.

تبدَّت صارمة عنيدة، حتى جزِعتُ خوفًا على حُبِّي، وأفضَت إلى أبيها بهمومها، ونحن في زيارة له؛ فهاله الأمر وصاح بي: ابعد عن ابننا يا غريب!

وخُيِّل إليَّ أنَّ النبأ تسرَّب إلى الخارج، رغم تكتُّمنا له، وأنَّ نظرات الغضب تحرِقني في الطريق، وطاردني القلق حتى قلت لنفسي: البناء مُهدَّد بالانهيار.

وصدَق حَدْسي فجاءني فام صاحب الفندق فأخذني من حجرتي إلى حجرته، حيث وجدتُ ضابط شرطة في انتظاري. سألني: أنت قنديل محمد العنَّابي؟

فأجبت بريقٍ جافٍّ: نعم.

فقال بجفاء: ثبَت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر.

فسألته بجزَع: كيف ثبت ذلك؟

– نحن أدرى بواجبنا. اسمع، فلم أحضُر للمناقشة، صدر أمر السيد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها، وأن ترحل عن المشرق مع أول قافلة.

هممتُ بالكلام ولكنه قال بغلظة: لم أحضر للكلام، أنت محجوز معي حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها، وستظل تحت الحراسة حتى تلحَق بالقافلة.

فقلتُ بضراعة: دعني أُودِّعهم.

فقال بخشونة: لقد وقع عليك أخف جزاء، فكن شكورًا.

ورجعتُ إلى حجرتي بعد ساعة — التي تحوَّلت إلى سِجْن — فوجدتُها خاليةً من الأم والأولاد والحب والأمل. لحظة كئيبة تنداح في أعماق النَّفس فتنكشف الحياة عن حُلم أو وَهْم، ولحِق بي فام فرمقني بعطف وقال: تحمَّل كما يجدُر برجلٍ رَحَّالة!

فقلت بصوت مُتهدِّج: حزني شديد جدًّا يا فام.

تفرَّس في وجهي قليلًا ثم قال: أطلق دموعك، الرجال يبكون أحيانًا.

فقلت وأنا أشدُّ على محابس دموعي: تبخَّرت مسرَّات الحياة.

– إنها تتجدَّد وتجيء أيضًا بالعزاء.

وربَّت مَنْكِبي ثم قال: تعلَّمْ أن الرحَّالة لا يجوز أن يسعى وراء عَلاقة دائمة.

دار الحيرة

تحرَّكت القافلة في ظلمة الفجر المُبشِّرة. شدَّ قلبي إلى الوراء، وغصَّ حلقي بالحزن والدموع، وتجمَّعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وننظر إليها، وانعدم العزاء. كما فارقت وطني منذ حوالي خمسة أعوام مُحبَطًا بخيانة الأم الحبيبة والولاة. انقلبتُ رَحَّالة مرَّة أخرى أُفكِّر بالبلدان والدفاتر، ولكن أين القلب وأين العقل أين؟ وقلتُ: إنَّ هذه النجوم أقربُ إليَّ من عروسة والأبناء. وستظل القوافل تسير حاملة الأموال والآمال فمن يحمل الأحزان؟ ويتلاشى الظلام، ويُشرق النور، وتتبدَّى الصَّحْراء بلا حدود كأنها الفناء. تُرى ماذا يقولون عنِّي في الوطن، ولِمَ لم أُصادفْ مرةً أخرى القاني بن حمديس، وقلتُ لنفسي: إنَّ خير ما تفعل يا رَحَّالة أن تَرى وتَسمع وتُسجِّل، وأن تتحاشى التَّجارب، وأن تُعاود أحلامك عن دار الجبل، وأن تحمل الدواء الشافي لجِراح الوطن، وقطعنا المسافة بين المشرق والحيرة في شهر، ثم عسكرنا على كثَب من واحة الزِّمام لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل، وواصلنا السير مع الليل حتى تبدَّى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم، ومضَينا نقترب من بابها الكبير.

أمام المدخل، على ضوء المشاعل، وقف مدير الجمرك، وكان على ما بدا من العسكريِّين بخُوذته ودرعه وسيفه، ووزْرته القصيرة. قال بصوت قوي أسْمعَ القافلة كلها: أهلًا بكم في الحيرة عاصمة دار الحيرة. ستجدون رجال الشرطة في كل مكان فتسألونهم عمَّا تريدون، وتتبعون إرشاداتهم بدقَّة تجعل من رحلتكم ذكرى طيِّبة لا يشُوبُها ما ينغِّص.

فقلتُ في نفسي «إنه ترحيبٌ وإنذار.» واخترقنا الباب ثم انقسمنا، فذهب التجار إلى فندق السوق، ومضى بي دليل إلى فندق الغُرباء. اخترقنا ظلامًا شديدًا، تسبح فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم، واقتربنا من الفندق، فرأينا مَدخَله الكبير على ضوء المشاعل، وشعَّ نور من بعض النوافذ. إنَّه بناء كبير مُشيَّد بالأحجار ولكنه مُكوَّن من دَوْر

واحد. وسرعان ما ذهبتُ وراء حقائبي المحمولة إلى حجرتي. حجرة متوسطة، بها فِراش يعلو عن الأرض ذراعًا، ذو غطاء أرجواني يُناسب جو الخريف المعتدل، وبه صوان ملابس، وأريكة صغيرة، وثمَّة شمعدان في كوَّة الوسط تشتعل به شمعة غليظة مُتوسِّطة الطول، أمَّا الأرض فمُغطَّاة بحصيرة مزركشة. توجد حضارة ولا شك وشتَّان ما بينها وبين المشرق.

وما كدتُ أخلع ملابس السفر وألبس قميص النوم، حتى جاءني رجلٌ متوسط القامة أسمر في الخمسين يرفُل في عباءة خفيفة، قال: هام .. صاحب الفندق.

فصافحته قائلًا: قنديل محمد العنَّابي، رَحَّالة.

– أتريد عشاء؟

– تناولته في الطريق.

فابتسم وقال: الليلة بياتًا وطعامًا بدينار، والدفع مُقدَّمًا.

قدَّرتُ أنَّ إقامتي ستمتد عشرة أيام؛ فأدَّيتُ إليه عشرة دنانير فسألني: من أي البلاد؟

– دار الإسلام.

فقال مُحذِّرًا: لا يُمارَس في الحيرة إلا دين الحيرة.

فذكَّرني بمأساتي ولكني سألته: وما دين الحيرة يا سيد هام؟

– إلهنا هو الملك.

وحيَّاني وانصرف. نفختُ الشمعة فأطفأتُها، وأويتُ إلى الفراش وأنا أقول لنفسي: الملك بعد القمر، يا له من ضلال! ولكن رويدك، ألا يتصرف الوالي في وطنك كأنه إله؟! استمتع بالرُّقاد بعد متاعب السفر، ولُذْ بالنَّوم من متاعب الحياة كلِّها. استيقظتُ مُبكِّرًا بخلاف ظني، وفي الحال أدركتُ أنَّ جلَبَةً شديدةً تهبُّ من الطريق هي التي انتزعتني من نومي. وفتحت نافذة فرأيت في ضوء البكور جيشًا لَجِبًا، فُرْسانًا ورَجَّالَة، يتقدَّم على دقَّات طبل نحو باب المدينة. جعلتُ أشاهد وأتساءل، ولما خلا الطريق طلبتُ الفطور فجاءتني صينية من نُحاس عليها طعام مُكوَّن من حليب، وزُبد، وجُبن، وعيش وعنقود من العنب. هممت أن أسال الخادم عن مسيرة الجيش، ولكن الحذر أمسكني. وارتديت ملابسي للخروج، فوجدت مَدخَل الفندق مُكتظًّا بالناس وهم يتحاورون: إنها الحرب كما توقَّع كثيرون.

– ضد المشرق ولا شك.

– لتحرير شعب من خمسة من الطغاة.

– سيكون تاريخًا جديدًا للمشرق تحت حكم إله عادل.

انقبض صدري وطارت أفكاري، لتحوم حول عروسة وأبنائها. كيف يكون مصيرهم؟ ليست الرغبة في تحرير أهل المشرق هي ما دفعَت إلى الحرب، ولكنه الطمع في المراعي وكنوز

السادة الخمسة، وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك. سوف تُزهَق أرواح، وتُهتَك أعراضٌ وتتشرَّد الألوف. ألا يحدث ذلك في حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوة؟! وجاءني هام صاحب الفندق قبل أن أغادره وقال لي: تقرَّر رفْعُ الأجرة نصفَ دينار لمواجهة أعباء الحرب.

فأدَّيتها صاغرًا، فقال باسمًا: ليس كثيرًا في سبيل تحرير العبيد.

فلعنتُه في سِرِّي كما لعنتُ الشِّعارات الكاذبة جميعًا. ومن شِدَّة قلقي ذهبتُ إلى فندق السوق فوجدتُ رِفاقي التجار مُجتمِعين في البَهْو. جالستُهم متابعًا أحاديثهم: أيام الحرب غير مأمونة.

– قد تضيع أموالنا لآخِر درهم.

– ولكن الأسعار سترتفع أيضًا.

– والمكوس الإضافية؟

وقال صاحب القافلة: الحروب لا تزول أبدًا، ونفْعها للتجارة أكثر من ضررها، ولا أظن أنَّ هذه الحرب ستطول؛ فالحيرة أقوى من المشرق بما لا يقاس. في أقل من أسبوع سينتهي كلُّ شيء. تركَّزَت أفكاري على أسرتي المفقودة، قرَّرتُ البقاء في الحيرة قريبًا من المشرق. وراودني أملٌ جديدٌ أنه بعد ضمِّ المشرق إلى الحيرة أستطيع أن أُسافر إلى المشرق لعلَّ الله يجمعني بأسرتي رحمةً منه وكرَمًا، ولعلِّي أستطيع أن أتزوج منها وأمضي بها معي في رحلتي إلى وطن جديد، ودين جديد. طابت حياتي بهذا الأمل الجديد؛ فانشرح صدري للتجوُّل والرحلة، واكتشاف الحيرة عاصمة دار الحيرة، سِرتُ بلا توقُّف وبلا كلَل، أنظر وأسمع، وأُسجِّل في الذَّاكرة. إنَّها مدينة كإحدى مدن بلادي. فيها ميادين وحدائق، وشوارع وحوارٍ، وعمائر، وبيوت، ومدارس، ومستشفيات عامرة بالخَلْق، وفي كلِّ موقع شرطي، وملاهي الرقص والغناء موفورة. وسوقها كبيرة مُترامية مُتعدِّدة الحوانيت، وبها سلع من الحيرة ومن جميع البلدان. وبعَث فيَّ جوُّ الخريف المُعتدِل نشاطًا غير محدود فتواصلَت أيام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل. ومن آنٍ لآنٍ أزور فندق السوق، فألقَى الرِّفاق، وأجالس صاحب القافلة، وقد قال لي مرَّة: جوُّ الحيرة معتدل بصفة عامَّة، صيفه مُحتمَل، وشتاؤه مقبول.

ولمَّا حدَّثتُه عن كثرة رجال الشرطة قال لي: الأمن مُستتبٌّ، ولكنهم يحمون الدولة.

الحقُّ أني طُفتُ بأحياء الأغنياء، وهي جميلة هادئة، قصورها متاحف، وسكانها يتحركون في هوادج، كما زرتُ أحياء الفقراء بأكواخها وخرائبها ومُناخها الكئيب وأناسها

التُّعساء. وقلتُ في ذلك لصاحب القافلة: يزعمون أن الحرب قامت من أجل تحرير العبيد في المشرق، هلَّا حرَّروا عبيد الحيرة؟

فتساءل الرجل هامسًا: وماذا تقول في بلادنا، بلاد الوحي؟!

فقلت بحزن: ما من سيِّئة عثرتُ بها في رحلتي إلا وذكَّرتني ببلادي الحزينة.

فقال لي الرجل وهو يمضي عني: عليك أن تُشاهِد قصر الملك الإله.

ولم يغِبْ عني ذلك، وقد وجدتُه قائمًا منيفًا شامخًا في عُزلة وسط فراغ مسوَّر بالنخيل والحُرَّاس، إنَّه مثل قصر الوالي في وطني، أو أفخم، وثكنات الحرَس تقوم في جانب، ومعبد الملك الإله يقوم في جانب آخر، وشدَّ بصري حقلٌ من الأعمدة مُسوَّر بسياج من حديد، فاقتربتُ منه حتى رأيتُ أنَّ رءوسًا آدميَّة مُنفصلة عن أجسادها تتدلَّى من هامات الأعمدة. ارتعدتُ لهَوْل المنظر. ولا أُنكر أنني رأيتُ صورة مُصغَّرة منه في صِباي في وطني. إنهم يُعرِّضون الرءوس للزجر والتأديب والعِظة. واقتربت من حارس وسألته: هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتلى؟

فأجابني بجفاء: التمرُّد على الملك الإله!

فذهبتُ مُسدِيًا إليه شكري، وأنا على يقين من أنهم شهداء للعدل والحرية، قياسًا على ما يقع عادةً في بلاد الوحي. إنه عالَم غريب حافل بالجنون، وستكون مُعجزة حقًّا إذا وجدتُ الدواء الشافي في دار الجبل، وسألت هام صاحب الفندق مساء: ماذا في دار الحيرة من مواقع تستحقُّ المشاهدة خارج العاصمة؟

فقال الرجل بثقة: عدا العاصمة لا يوجد إلَّا الرِّيف، وليس به ما يسرُّ الرحَّالة.

وعكفتُ على تدوين المشاهِد، فأراحني ذلك من التفكير في عروسة وأبنائها. وسهِرتُ ليلةً في مَلهًى فهالتني عربدة السكارى، وفِسْق الفاسقين؛ مما يعفُّ قلمي عن الخوض فيه. وعند مروري بفندق السوق قال لي صاحب القافلة: نحن سائرون فجْرَ الغد فهل تجيء معنا؟

فأجبتُه واجمًا: كلَّا، إني باقٍ بعض الوقت.

جذبَتني عروسة للبقاء، ولكن آلمني ما ينتظرني من وَحْدة مخيفة. واستيقظتُ عند الفجر فتخيَّلتُ القافلة وهي تتحرك على صوت الحادي. نداء كالقدَر يدعوني للبقاء، وأملٌ في السعادة لا يريد أن يخبو. ولم أشأ أن أُبدِّد وقتي سُدًى فنشِطتُ لتحصيل المعلومات التي لا تجود بها المشاهَدة، ولم أَجِد عند صاحب الفندق فراغًا للحديث كالذي وجدتُه في

المشرق، فسألتُه أن يَدُلَّني على حكيم هذه الدار إنْ سمَح لي بلقاء. قال هام: في وُسعي أن أُعِدَّ لك لقاءً كما حدَث مع غيرك.

وذهبتُ في الميعاد عصرًا إلى بيت الحكيم ديزنج. بيت جميل تكتنفه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة. استقبلني بابتسامة لطيفة وأجلسني على أريكة إلى جانبه. كان في الخمسين قويَّ الجسم واضح القسمات، تتواءم قَلَنْسوته البيضاء مع عباءته البيضاء. طلَب مني أن أُقَدِّم نفسي؛ ففعلتُ ذاكرًا اسمي ومهمَّتي ووطني. قال: بلادكم عظيمة أيضًا، خبِّرني عما أعجبَك في دارنا.

فقلتُ مُداريًا ذاتي: أشياءُ لا تُعَدُّ ولا تُحصى .. حضارة وجمال .. وقوة ونظام.

فسأل في مباهاة: وما رأيُك في حرب نُعلِنها مُضحِّين بأبنائنا من أجل تحرير دار غريبة؟

– هذا ما لم نسمع بمثله من قبل.

فقال بيقين: نحن نُقدِّم للناس مثالًا للوطن السعيد الشريف.

فأحنيتُ رأسي موافقًا فقال: لعلَّك تسأل عن سِرِّ ذلك كله؟ لقد دلُّوك عليَّ باعتباري حكيمَ هذا البلد، والحق أنني ما أنا إلا تلميذ. مولانا هو الحكيم، وهو الإله، وهو مصدر كلِّ حكمة وخير. إنَّه يجلسُ على العرش، ثم ينعزل في جناح صائمًا حتى يُشِع منه النور؛ فيعرف أنَّ الإله قد حَلَّ فيه، وأنه صار الإله المعبود، عند ذاك يُمارس عمَله، يرى كلَّ شيء بعين الإله، فنتلقَّى منه الحكمة الأبديَّة في كل شيء، ولا نُطالَب بعد ذلك إلا بالإيمان والطاعة.

تابعتُه باهتمام، وأنا أستغفر ربي في سِرِّي، أمَّا هو فواصَل حديثه قائلًا: فهو ينشئ الجيش، ويختارُ له قُوَّاده فيكون جيش النصر، ويُعيِّن من أسرته المُقدَّسة الحكَّام، وينتخب من الصَّفوة قادةً للعمل في الأرض والمصانع، أمَّا بقية الناس فلا قداسة بهم ولا مواهب، يعملون في الأشغال اليدوية، ونُوفِّر لهم اللقمة، يلي هؤلاء الحيوانات، ويلي الحيوانات النبات والجماد، نظام مُحكَم كامل يضع كلَّ فرْد في موضعه مُحقِّقًا بذلك العدل الأكمل.

وسكتَ مليًّا وهو ينظر إليَّ ثم قال: لذلك فنحنُ لنا أكثر من فلسفة، نُخاطِب الصَّفوة بما يُقوِّي في نفوسهم القوة والهيمنة والنمو، ونستعين على ذلك بتوفير التعليم لهم والطب، أمَّا الآخرون فنُقوِّي بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة، ونَهديهم إلى الكَنزِ الرُّوحيِّ المدفون في أعماق كلٍّ منهم، والذي يُهيِّئ لهم بالصبر والاجتهاد السَّلام. بهذه الفلسفة المزدِوجة تتحقَّق السعادة للجميع، كلٌّ بحسب استعداده وما أُعِدَّ له، فنحن أسعد أهل الأرض طُرًّا.

تفكَّرتُ فيما يُقال وفيما لا يُقال ثم سألته: مَن يملك الأرض والمصانع؟
– الإله، هو الخالق وهو المالك.
– وعَلاقة الصَّفوة بها؟
– هم مُلَّاكها بالنيابة، والرَّيْع يُقسم مناصفةً بينهم وبين الإله.
فوثَبْتُ خطوة جديدة مُتسائلًا: كيف تُنفَق أموال الإله؟
فضحك لأولِّ مرة وقال: وهل يُسأل إله عمَّا يفعل؟!
– إذن هو مَن يُنفق على المدارس والمستشفيات؟
– الصَّفوة باعتبارها وقْفًا عليهم، وعلى أبنائهم.
ثم متسائلًا في زَهْو: أليس هذا هو الكمال نفسه؟!
فقلتُ مُداريًا ما في نفسي: هو ما يقال عادةً عن دار الجبل.
فهتف بقوة: دار الحيرة هي دار الجبل.
فقلت بوضوح: صدقت أيُّها الحكيم ديزنج.

فقال بثقةٍ ويقين: أن تعيش بإرشاد الإله وتوجيهه هو أقصى ما يطمَح إليه الإنسان من عدْل وسعادة.

فقلت مُتسلِّلًا: لذلك يَشتدُّ عجَبي من أولئك المُتمرِّدين الذين رأيتُ رءوسهم المُعلَّقة.

فهتف بغضب: لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء، ولكنهم قلَّة على أيِّ حال.

وفي نهاية المقابلة قدَّم لي تفاحة وقدَحًا من حليب؛ فرجعت إلى وَحْدتي في الفندق مُتفكِّرًا مُغتمًّا، وتذكَّرتُ أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي فسألته على البعد: أيهما أسوأ يا مولاي، مَن يدِّعي الألوهية عن الجهل أم من يُطوِّع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟!

وكابدتُ المَلامة أيامًا، ثم بلغتني أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكد أنَّ جيش الحيرة قد انتصر وحقَّق أهدافه، وأنَّ دار المشرق أصبحت الإقليم الجنوبي لدار الحيرة. وتدفَّق الفقراء إلى الطرقات يُعلنون فرحتهم بالنصر كأنهم هم الذين سيجنون ثمرته. وتساءلتُ في قلَقٍ بالغ: تُرى كيف أنتِ يا عروسة؟ .. وكيف أنتم يا أبنائي؟

وبكَّرتُ يوم عودة الجيش المنتصر؛ فاتَّخذتُ موقفي غير بعيد من الفندق، في الطريقِ الملكيِّ الممتدِّ من مدخَل الحيرة حتى سراي الملك، وكان الزِّحام شديدًا على الجانبين حتى خُيِّل إليَّ أنَّه لم يبقَ من الأهالي أحد في بيته أو مكان عمَله. وعند الضُّحى ترامت إلينا دقَّات الطبول، وتقدَّم الموكبَ فُرسان يحملون في سِنان رماحهم خمسة رءوس هي رءوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق. هكذا رأيتُ لأول مرَّة السيد الذي ذهبت يومًا إلى

حاجبه لمساومته على شراء عروسة. وتبِع ذلك طابور طويل من أسرى الحرب، يسيرون عرايا مُكبَّلِي الأيدي بين صفَّين من الحُرَّاس، وتتابعت فِرَق الجيش من فُرسان ورَجَّالة في جوٍّ عاصفٍ بالهُتاف الحار. يوم نصرٍ وأفراح، أمَّا المآسي الدامية التي خلَّفها وراءه فلا يعلمها إلَّا الله. حياة بشرية غريبة يُمكِن تلخيصها في كلمتين، دماء وزغاريد. وفي ذيل الجيش سارت السبايا من النِّساء بين ذراعين من الحُرَّاس، خفَق قلبي خفْقة شديدة وتمثَّلَت عروسة لعينَيَّ كما رأيتُها أول مَرَّة، بل كما رأيتُها وهي تقود أباها في الحارة التي شهِدَت مولدي. وزاغ بصري بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية. وصدقت لهفتي فاستقرَّت عيناي على وجْه عروسة. هي عروسة بجسدها المشوق ووجهها المليح التعيس تتقدَّم ذاهلةً يائسةً ضائعة. اشتعل بي نشاط مقتحم. التصق بصري بها. اندفعتُ تابعًا لطابور السبايا غير مُبالٍ بمن أرتطم بهم من الواقفين، ولا باحتجاجاتهم، ولا باتِّهاماتهم الباطلة؛ بأنني أجري وراء أجساد النِّساء العارية. ناديتُها مِرارًا فتلاشى صوتي في هدير الأصوات المتصاعدة. لم أُفلِح في لفْت نظرها أو تنبيهها، حتى حجزني عنها الحُرَّاس الذين منعوا الجماهير من دخول ميدان القصر المخصَّص للصَّفوة من أهل الحيرة. هكذا تجلَّت واختفت كالشهاب تاركةً إيَّاي للجنون والقنوط، وأين الأبناء؟ هل يعيشون الآن في كنَف جَدِّهم؟ وفضفضتُ ضِيقي بالإفضاء بسِرِّي إلى هام صاحب الفندق فقال لي: قد تُعرَض للبيع في سوق الجواري.

فقلتُ في ارتياب: ولكنها حربُ تحرير!

فقال: إلا السبايا، فلهنَّ معاملة خاصَّة.

باركتُ هذا النِّفاق باعتباره ثقبًا للأمل في سماء سوداء. وتشبَّثتُ أكثرَ بالبقاء، وجعلتُ أطوف بسوق الجواري كلَّ يوم، وحُلمي بجمْع الشمل يتحدَّى اليأس، وذات مساء تلقَّاني صاحب الفندق بابتسامة مُشجِّعة وقال: غدًا ستُعرض السبايا للبيع.

نمتُ ليلتها نومًا مُتقطِّعًا، وذهبتُ إلى السوق فكنتُ أول الذاهبين، ولَمَّا عُرِضَت عروسة اقتحمتُ المزاد بإصرار، تبدَّت في ثوبٍ أخضرَ لأول مرة في حياتها، وتجلَّى جمالها، رغم الحزن الشديد. وكانت تنظر في داخل ذاتها المهيضة فلم ترَني، ولم تتابع ما يجري. ولم يبقَ معي في المزايدة إلا شخص سَمِعتُ من يهمس بأنَّه مندوب من الحكيم ديزنج. ورسا المزاد عليَّ بثلاثين دينارًا، فلمَّا دُفعَت إليَّ عرَفَتني فارتمَت بين يديَّ وهي تنشِج حتى أثارت دهشة جميع مَن بالسوق. ولم تكن ثمَّة فرصة لتبادل حديث، فمضيتُ بها خارجه، وفي الطريق ما ملَكتُ أن سألتها: كيف الأبناء يا عروسة؟

ولكني كفَفتُ عن مُلاحقتها لشدة انفعالها حتى خلوتُ إليها في حجرتي بالفندق، هناك عانقتُها بحرارة، وتركتُها على الأريكة حتى تثوب لنفسها، ثم قلت: إني حزين لما قاسيت من عناء.

فقالت بصوت غريب: لكنك لم ترَ شيئًا.

– حدِّثيني يا عروسة فإنني أُوشك أن أُجَن.

فقالت ودموعها تسيل: عن أي شيء؟ إنَّه الهول، اقتحموا الخيمة، قتلوا أبي بلا سبب، قبضوا عليَّ. أين الأولاد؟ .. لا أدري، قُتِلوا؟ .. تاهوا؟ .. دعِ الجنون لي أنا.

فقلتُ مُكابرًا مخاوفي: لماذا يقتلون الصغار؟ .. كلَّا .. إنهم في مكان ما .. سنعثر عليهم.

– إنهم وحوش، لماذا يُمثِّلون بنا بعد الانتصار على جيشنا؟ .. لكنهم وحوش. كانت ليلة بدر والإله حاضر يرى ويسمع، ولا يفعل شيئًا.

فقلتُ مواسيًا: على أي حال اجتمع شمْلنا، وقلبي يُحدِّثني بأنَّ الرحمة آتية.

فهتفتْ: لا توجد رحمة، ولن أرى أبنائي.

فقلتُ برجاء: عروسة، الحياة شَرُّها كثير، ولكن خيرها وفير أيضًا.

– لا أصدِّق.

– سترَين .. سنرحل مع أوَّل قافلة إلى المشرق للبحث عن الأبناء.

– متى تقوم؟

– مداها عشرة أيام.

رنَت إلى لا شيء في حزن عميق، ففاض قلبي بالحنين كعين مُتفجِّرة، وتَسلَّينا في فراغنا الطويل بالتجوُّل في المدينة، والمشاهدة، واجترار الأماني، والاستعداد للسفر. غير أنَّ هام صاحب الفندق كان يَدَّخِرُ لي مفاجأة فدعاني إلى حجرته، ونظر إليَّ بشيء من الحرَج وقال: لديَّ أخبار غير سارَّة.

فتساءلتُ ساخرًا: أكثر ممَّا لديَّ؟

فقال بهدوء: الحكيم ديزنج يرغب في حَوْز فتاتك.

فدهِشتُ وقلتُ بحِدَّة: أرجو أن تعتبرها زوجتي.

– سيؤدِّي إليك ثمنها.

– إنها ليست سلعة.

فقال لي بنبرة ناصحة: ديزنج رجل قوي، وهو من المُقرَّبين إلى الإله.

فقلتُ وأنا أداري انزعاجي: الغُرباء في بلادكم آمنون.

فقال بحرارة: عاود التفكير من أجل صالحك.

فقلت بإصرار: رأيي في هذه المسألة واحد لا يتغير.

وحِرتُ في أمري، هل أنقُل الحديث إلى عروسة؟ هل أضيف إلى أحزانها حزنًا جديدًا؟ الحق أني أشفقتُ من تكدير صَفْو الحُلم الباقي لها. وتساءلتُ هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة مني بقوة نفوذه؟ وتذكَّرتُ حاجب الوالي الذي سرق مني حليمة في وطني، ولكني لم أطمئنَّ إلى رأي مستقر. وطَوال الوقت شعرتُ بخطَر يُطاردني، وبأن سعادتي لا تقف على قدمين، ولا أجنحة لها. وفي صباح اليوم السابق ليوم الرحيل بأربعة أيام، استدعاني خادم لُقابلة هام في حجرته. وهناك وجدتُ ضابط شرطة فقدَّمني هام إليه، وإذا به يقول: ستذهب معي لمقابلة رئيس شرطة العاصمة.

سألته عن السبب فادَّعى الجهل به. طلبتُ أنْ أُخبر فتاتي فقال الضابط: سينوب عنك هام في ذلك.

وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامَّة بالشارع الملكي، فمثَلْتُ أمام المدير الذي جلس على أريكة بين بعض معاونيه، نظر إليَّ نظرة لم أرتَحْ لها وسألني: أنت قنديل محمد العنَّابي الرحَّالة؟

فأجبتُ بالإيجاب، فقال: إنك مُتَّهم بالسخرية من دين هذه الدار التي تستضيفك.

فقلتُ بقوة ووضوح: تهمة لا أساس لها من الصحَّة.

فقال ببرود: يوجد شهود.

فهتفت: لا يُمكن أنْ يشهد بذلك ذو ضمير.

فقال باستياء: لا تَطْعن الأبرياء، ولتدَعْ ذلك لتقدير القاضي.

وألقى القبض عليَّ. وفي صباح اليوم التالي قُدِّمتُ إلى المحكمة، وأُعلنَت التهمة فرفضتُها، وجاء شهود خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق، فأدلَوا بشهادة واحدة — كأنها قطعة محفوظات — بعد أن أدَّوا اليمين. وأصدرَت المحكمة حُكمها بسَجْني مدى الحياة، مع مصادرة أموالي وما أملك، وبذلك دخلت عروسة في المصادرة. حدَث ذلك كلُّه ما بين يوم وليلة. ذقت طعم اليأس المرير، وعرَفتُ أنه حقيقة تقع لا حكاية تُروى. ضاعت عروسة، تلاشت الرحلة، تبدَّد حُلم دار الجبل، اختفى وجودي نفسه في هذه الدنيا. وكان السِّجْن عند مشارف المدينة في منطقة صحراوية، وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض، ذي منافذَ ضيقة في السقف، وجدرانه من الأحجار الكبيرة، وأرضه رمليَّة، ولكل سجين سروال

لا غيرُ وفروة، يكتنفه جوٌّ خانق ذو رائحة كدِرة، نصف مظلم كأنه فجْر لا تُشرق فيه شمس. نظرتُ حولي وقلتُ في ذهول: «سأبقى هنا حتى آخِر يومٍ في حياتي.» وتَطلَّع إليَّ الرِّفاق وسألوني عن جريمتي. سألوني وسألتُ. أدركتُ أن ما يجمعنا هي جرائم العقائد والسياسة، وأني واجدٌ في ذلك شيئًا من العزاء إنْ أمكنَ لِمثلي أن يتعزَّى. إنهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين تضيق بهم الأجواء الفاسدة، سمعوا حكايتي فعلَّق أحدهم عليها قائلًا: حتى الغرباء …

ولم يكن أحدٌ منهم قد كفَر بالإله، فهذه جريمة عقوبتها ضرْب العُنق، ولكن نُقلت عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرُّفات الشَّاذَّة التي تمَسُّ العدالة أو حرية الإنسان. ورأيتُ بينهم عجوزًا نيَّفَ على الثمانين، قضى منها في السجن خمسين عامًا، بدأها على عهْد الملك السابق سلف الملك الحالي، رأيتُه قد فقدَ حواسَّه وذاكرته؛ فهو لا يدري أين هو، ولا ماذا جاء به، وينطرح على فروته جسدًا ضئيلًا بلا رُوح، قال صوت: إنه أجدرُنا بالتهنئة.

فصدَّقتُ على قوله بلا تردُّد، وحامت أفكارُنا حول وضْع الإنسان في هذا العالم.

– لا يوجد بلد سعيد.

– الشكوى هي لغة الإنسان المشتركة.

– نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحُلم الذي لا يتحقق.

– لكن ثمَّة بلدان أفضل.

– هي نفسها لم تعرف الرِّضا بعْد.

– ودار الجبل؟

وثبَ قلبي في صدري حال استقبال الاسم الساحر. تذكَّرتُ بحسرة هدفي الضائع، وسألتُ: ماذا تعرف عنها؟

– ليس أكثر مما يُقال عادةً من أنها وطن الكمال.

فسألتُ باهتمام: ألم تقرأ عنها كتابًا أو قابلتَ من زوَّارها أحدًا؟

– كلَّا .. ليس إلا ما يقال.

– ومَنْ ذا يُحقِّق الحُلم؟

– الإنسان، لا شيء سوى الإنسان.

ومِلْتُ الكلام. مِلْتُ مكابدة الحسرات. مِلْتُ أكاذيب الأمل، وقلتُ لنفسي: لا دنيا لي إلا هذا السجن الأبدي.

لم أجد في عقلانيَّة أستاذي الشيخ مغاغة أيَّ جدوى في سجني الدائم، ولكني وجدتُ في قدرية أمي الساذجة راحة اليأس، كأنها فلسفة خُلقت خاصَّةً للسجن الأبدي. قلتُ

مُستسلمًا: «لتكُنْ مشيئة الله .. فكلُّ ما جاءني من عنده.» سَلَّمتُ نفسي لقدَري، دفنتُ آمالي، شيَّعتُ للفَناء ماضيَّ وحاضِري ومستقبلي. الأمل الوحيد الباقي لسجينٍ مِثلي هو قتل الأمل، والتكيُّف مع القبر الذي ازدردني، والزَّواج من اليأس المُهيمن المُترامي الرَّاسخ. أطرد أشباح الوطن والأم وعروسة والأبناء ودار الجبل. وآلَفُ الرَّائحةَ الكَدِرة، فلا رائحة في الوجود غيرها، والضوء الخابي نصف المظلم، فلا ضوء في المكان غيره، والهوامَّ المنتشرة فهي مالكة المكان وصاحبة الحق الأول فيه، والألم والملل فهما الرَّفيقان الدَّائمان، ورحتُ أغرق في أعماقٍ لا نهائية. ويسود الصمت، ويتحول العذاب إلى عادة، وأنهَل من اليأس قوة عجيبة على الاحتمال والصبر. ويخترق جدارَ الصمت صوتٌ يقول: يُحكى عن سجين قديم أنه أنشأ في ذاته قوةً خارقةً حتى استطاع أن يخترق جدار السجن، كأنه صوت وطار في الهواء إلى ما وراء الحدود.

فيتلقَّى صبري هذا الهذيان بطيبة. وبعد يوم أو عام قال صوت آخر: قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعدُ مرَّة أخرى إلى سطح الأرض.

فأعفو عمَّن ذكَّرني بسطح الأرض، وأتساءل متى أفقد الحواسَّ مثل العجوز السعيد. وهبطتُ في الأعماق درجات في إثر درجات فضاع الزَّمن فيما ضاع من أسباب الحياة، واختفى التاريخ. وجهلتُ الساعة واليوم والشهر والعام، وتوارت المعالم، وبات عمري لغزًا، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب، ولا مرآة أرى فيها نفسي إلا الرِّفاق فأتخيل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة، فلم ينعم بالسعادة في دنيانا المظلمة إلا الهوامُّ والحشرات. لا شك أنَّ الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأننا نتذوق طعم الفناء بجلاله الأبدي. هكذا .. هكذا .. هكذا .. حتى زَجَّ إلينا بقادم جديد التففنا حوله كالهوامِّ ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر. رغم كِبَرِهِ وتعاسته خُيِّل إليَّ أنني لا أراه لأول مرة، وكان العجوز قد مات منذ زمنٍ لا ندريه، فحلَّ محله، وراح ينظر في وجوهنا ويبكي، وقال قائل: لا تبكِ يا رجل؛ فالدُّموع تؤذي الهوام.

وسأله سائل: من أنت؟

فأجاب برثاء: أنا الحكيم ديزنج.

فخرجتُ من غيبوبتي الأبدية، وصِحتُ بصوتٍ غريبٍ: ديزنج .. ديزنج .. هيهات أن أنساك!

فسألني: من أنت؟

فهتفتُ وقد وقعتُ في الزمن: إني ضحيَّتك!

فقال بضراعة: أصبحنا في البلوى سواء.

فصرختُ: كلَّا، لسنا سواء.

فهتف: انقلبت الدنيا، ثار قائد الجيش على الملك، وقتله وأحلَّ نفسَه محلَّه.

فدبَّت الحياة في الرِّفاق، وانبعثَت منهم انتفاضة حماسة، وتساءل أحدهم: ماذا يحدث فوق سطح الأرض؟

فقال ديزنج: قتل رجال الملك، أمَّا أنا فقُضي عليَّ بالسجن مدى الحياة.

امتلأت العيدان الخاوية بأملٍ جديد، وتعالى الهُتاف للإله الجديد، أمَّا أنا فسألتُه بوحشية: ألا تتذكرني؟

فسألني بخوف: من أنت؟

فهتفت: أنا صاحب عروسة، تذكَّرتَني الآن؟!

فتراجع في حذَر ونكَّس رأسه. سألته: ماذا حصل لها يا وغْد؟

قال بذلٍّ وانكسار: حاولنا الهرب في القافلة الذاهبة إلى دار الحلبة، ولكنهم قبضوا عليَّ أمَّا هي فرحلَت إلى الحلبة.

– ماذا عن أبنائها؟

– سافرنا معًا إلى المشرق للبحث عنهم، ولكننا لم نعثر لهم على أثر. حدَث ذلك منذ عهد طويل.

لكني نسيتُ أحزاني فيما نسيت، أمَّا غضبي فكان يتصاعد. وصرخت فيه: ما أنت بحكيم ولكنك وغْد لئيم، لم تتورَّع من تلفيق تهمة لي لتسرق امرأتي، والقتل دون ما تستحقُّ من عِقاب.

وهبَط عليَّ صوت الحارس من منفَذ السقف يأمرني بالابتعاد عنه، فرجعت إلى موضعي وجسمي الضعيف ينوء بدفقة الحياة المباغتة التي اكتسحته. جلست على فروتي مُسندَ الظهر إلى الجدار، مادًّا ساقيَّ متلقِّيًا من جديد تيار الحياة والتاريخ. ودِدتُ أن أسأله عن المدة التي قضيتها في السجن، ولكني كرهتُ أن أواصله بحديث. غير أنه نظر نحوي، وقال بحزن: إني آسف ونادم.

فقلت بحنق: مثلك غير جدير بالندم.

فقال بنفس النبرة: نلت جزائي بمعاشرة امرأة لم تكفَّ عن كراهيتي قط.

ثم وكأنه يُحدِّث نفسه: عشرون عامًا لم تغيِّر من قلبها.

عشرون عامًا! يا لَضياع العمر! جاءني الجواب قاسيًا كنصل الخنجر. ها هو الرحَّالة ينحدر إلى منتصف الحلقة الخامسة. وسيموت ذات يوم في هذا القبر، وما حقَّق هدفًا، ولا

حظِيَ بمتعة، ولا أدَّى واجبًا، وضاعف من وكسي تواجُد هذا الوغد معي في قبري ليُذَكِّرني بعثراتي وسوء حظي وحَيْدي عن هدفي. أمَّا الرِّفاق فاشتغلت أنفسهم بأمل جديد، وتوقَّعوا جميعًا أن يَصْدُر عفوٌ شاملٌ عنهم بين ساعة وأخرى. ولم يخِبْ أملهم فجاءنا ذات يوم مدير السجن، وقال: اقتضت إرادة الإله الجديد إصدار عفوٍ شاملٍ عن ضحايا الملك المخلوع الغادر.

ووقَفنا جميعًا نهتف بالدُّعاء والتأييد. وغادرنا السجن، فلم يبقَ إلا ديزنج، وآذانا ضوء النَّهار الخارج لاعتيادنا الظلام فحجبنا أعيننا بأكُفِّنا، ومضى بي ضابط إلى مركز الغرباء. وقال لي المدير: نحن آسفون لما حلَّ بك من ظُلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الحيرة، وقد تَقرَّر أن يُردَّ إليك مالك، ومتاعك عدا الجارية التي غادرت البلاد.

وذهبتُ من فوري إلى حمَّام عمومي، فحلقوا لي شَعر رأسي وجسدي، واغتسلتُ بالماء الدافئ، ودهنت رأسي وجسمي بزيت الباشام لاستئصال الهوامِّ والحشرات. وقصدتُ فندق الغُرباء وأنا أتوقَّع لقاءً مثيرًا بيني وبين هام، غير أنَّه تبيَّن لي أنَّ الرجل مات وحلَّ محلَّه آخَر يُدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته. وكان اللقاء المثير حقًّا لا بيني وبين هام، ولكن بيني وبين نفسي في المرآة. ورأيتُ قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفْنٍ استمرَّ عشرين عامًا. كهْل حليق الرَّأس والذقن، ناحل ذابل غائر العينين، ذو لونٍ كئيب ونظرة ميتة، ووجنتين بارزتين. وفي الحال قرَّرتُ أن أبقى في الحيرة حتى أستردَّ شيئًا من الصحة والعافية والتوازن الداخلي. ورحتُ أمشي لا لأرى جديدًا، ولكن لأدرِّب قدمي على المشي، وجعلتُ أتساءل عمَّا يجدر بي عمَله، هل أرجع إلى وطني قانعًا من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلةَ والاستطلاعَ ودقَّ أبوابِ المصير؟ وكرِهتُ العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجدب والخيبة. وحدَّثني قلبي بأنني في وطني معدود من الأموات، لا أحد ينتظرني أو يهمُّه مرجعي، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستأصل الجذور وبذَر في أصولها الغربة والوحشة. كلا لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء، بدأتُ رَحَّالة، وسأظل رَحَّالة، وفي طريق الرحلة أسير. إنه قرار وقدَر، خيال وفِعل، بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل، ترى كيف تتبدَّين اليوم يا عروسة، وأنت بنت أربعين؟!

دار الحلبة

كالأيام الخالية تحرَّكت القافلة في تؤدة وجلال. انغمسنا في ظلمة الفجر الرَّقيقة، لا لأنهل من الشعر هذه المرة، ولكن لأتلقَّى لطمات من ذكريات السجن، وحسرات من العمر الضائع، ورأيتُ أشباح الرِّفاق فرأيتُ جيلًا جديدًا من التجار، فما زال النَّشاط يتمادى والمالُ يتكاثر والجاه يصيد المُغامرين، أمَّا الحالمون فالحيرة لهم، وتتابعت عليَّ إحباطاتي الماضية، ساعة غادرتُ الوطن ناعيًا حليمة، ساعة طُردتُ من المشرق باكيًا عروسة، وساعة أودِّع الحيرة نادبًا السعادة والشباب. وانتبهتُ إلى الشرق فرأيتُه يموج بماء الورد الأحمر، وانداح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عامًا، وتَجلَّت الصَّحْراء لا نهائية، وتفشَّى الصيف. وتواصل السَّيْر ما يُقارب الشهر، وفي إحدى محطَّات الراحة سألتُ صاحب القافلة عن القاني بن حمديس، فقال لي: البقيَّة في حياتك.

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبيلي، ولكنه لم يسمع به، لا هو ولا أحدٌ من تجار القافلة. وعسكرنا في الشامة استعدادًا لدخول الحلبة. كانت لحيتي قد نبتت، وكذلك شعر رأسي، وأخذ دم الصحَّة يجري من جديد. وواصلنا السير حتى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربيع القمر، وتقدَّم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المُناسبة لجوِّ الصيف المُعتدل، وقال بصوت مرِح: أهلًا بكم في الحلبة عاصمة دار الحلبة، دار الحرية.

دهِشتُ لسماع الكلمة الملعونة في كلِّ مكان، ودهِشتُ أيضًا لخُلوِّ كلامه من التحذيرِ المُعلَنِ أو الخفي.

وقلت لصاحب القافلة: أوَّل دار ترحِّب بالقادم بلا نذير.

فضحك قائلًا: إنها دار الحريَّة، ولكنَّ الحرص أمان الغريب.

ومضَوا بي وحدي إلى فندق الضيوف. وفي الطريق — تحت ضوء القمر — تناثرَت معالمُ من المدينة في عظمة موحية بمنظر جديد، إلى كثرة من الهوادج الذَّاهبة والآئبة على

ضوء المشاعل، رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل، أمَّا مدخَل الفندق فقد استوى في اتساع وعُمْق تحت سقيفة تتدلَّى منها القناديل على هيئة تبهر الأبصار. وبدا بناء الفندق ضخمًا مرتفعًا ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء. أمَّا حجرتي فادَّخرت لي مفاجأة أخرى بألوان جدرانها الزرقاء، وسَجَّادتها الوثيرة، وفِراشها النُّحاسي المرتفع بأغطيته المزركشة، وغير ذلك مما لا يوجد عادة إلَّا في البيوت الكريمة بوطني. تطالعني هنا حضارة بلسان بليغ مُتفوِّقة ولا شكَّ على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات. ووجدتُني أتساءل: تُرى أين وكيف تعيش عروسة؟ وقبل أن أنغمس في الذكريات زارني رجل متوسِّط العمر يرتدي سترة زرقاء، وسروالًا أبيض قصيرًا، قال باسمًا: قلشم .. مدير الفندق.

فقدَّمتُ له نفسي فسألني برقَّة: أي خدمة؟

فقلت بصراحة: لا شيء مقدَّمًا على النوم الآن إلا أن تُخبرني بأجرة الإقامة.

فقال باسمًا: ثلاثة دنانير لليلة.

هالني الرَّقم وقلتُ لنفسي إنه يبدو أنَّ كل شيء يتمتع بالحرية في الحلبة حتى الأسعار، وكالعادة دفعتُ أجرة عشرة أيام بلياليها.

وأسلمتُ نفسي إلى فِراشٍ لم أحظ بمِثل حنانه منذ غادرتُ وطني، واستيقظتُ مبكِّرًا؛ فجاءني الفُطور إلى حجرتي؛ من الخبز، واللبن، والجبن، والزُّبد، والعسل، والبَيْض. أدهشني الطعام بكميَّته وكيفيَّته، فاقتنعتُ أكثر بأنني أزور عالَمًا جديدًا مُثيرًا. وغادرتُ الحجرة تحرِّكني لهفة وأشواق، وأملٌ بأنني سأعثر على عروسة أيضًا لكي تتمَّ لُعبة القدر، وقابلني قلشم عند مدخَل الفندق فقال لي: توجد هوادج تحت تصرُّف الرحَّالة لمشاهدة المعالم الهامة.

فتفكَّرت قليلًا وقلتُ: أودُّ أن أبدأ بمفردي وكيفما اتَّفَق.

ومنذ اللحظة الأولى شملني شعور بأنني في مدينة كبيرة، يذوب فيها الفرد فلا يدري به أحد. ترامى أمام الفُندق ميدان واسع مستدير تقوم على محيطه العمائر والحوانيت، تتوسَّط نهايته قنطرة تعلو نهرًا وتُفضي إلى ميدان صغير تتفرع منه شوارعُ كبيرة، لا ترى لها نهاية، تحفُّ بجوانبها العمائر والأشجار، أين أتجه؟ .. وأين توجد عروسة؟ وكيف أسير بلا مرشد؟! تركت قدميَّ تقودانني بحرية في مدينة الحرية، فانبهرتُ بكلِّ ما وقعَت عليه عيناي بين خُطوة وأخرى. شبكة من الشوارع لا تَعْرِفُ لها أوَّل من آخر، صفوف من العمائر والبيوت والقصور، حوانيتُ بعدد رمل الصَّحْراء تَعرِض من ألوان السلع ما لا يُحيط به حصْر، مصانع ومتاجر ودُور لَهْو، حدائقُ كثيرةٌ متعدِّدةُ الأشكال والألوان،

تيارات لا تنقطع من النِّساء والرجال والهوادج، أغنياء وكبراء، وفقراء أيضًا، وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق، ولا يخلو طريق من فارس من فُرسان الشرطة. ملابس الرِّجال والنِّساء مُتنوِّعة، وللجمال حَظٌّ موفورٌ وكذلك الأناقة، ويُصادفك الاحتشام كما يُصادفك التَّحرُّر القريب من العُرْي، والجِد والرَّزانة يُؤاخيان المَرَح والبساطة، وكأنني ألقى لأول مرة بشرًا لهم وجودهم، ووزنهم، وإدلالهم بأنفسهم، ولكن كيف يأمل آدمي في العثور على عروسة في هذا البحر الهادر بلا شطآن؟! سِرتُ وتعبتُ واسترحتُ في الحدائق وأنا أشعر طيلة الوقت بأنني لم أبدأ بعد. وندمتُ على أَنَّنِي لم آخذ هودجًا من هوادج الرحَّالة كما أشار قلشم، غير أنه صادفني حادثان مثيران. أَوَّلُهما حادثٌ فرديٌّ ألممتُ به في حديقة عامَّة إذ رأيتُ رجالًا من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد، ثم علِمتُ أَنَّ البستانيَّ عثر على جُثَّة امرأة قتيلة في ركن الحديقة. وأمثال هذا الحادث تقع كثيرًا في كل مكان، أمَّا الذي أثار دهشتي وانزعاجي فكان مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة يتبعونهم دون أن يتعرَّضوا لهم بخير أو شر. تذكَّرتُ مظاهرة شبيهة شهِدتُها في وطني قصدَت الوالي لتشكوَ إليه رفع المكوس وضيق الحال. أمَّا المظاهرة فكانت تُطالب بالاعتراف بشرعية العَلاقات الجنسية الشاذة. لم أصدِّق عينيَّ ولا أُذنيَّ، وأيقنتُ بأنني أطوف بعالم غريب، وأنَّ هُوَّة سحيقة تفصل ما بيني وبينه، وخالطني خوف من المجهول، واقترب الظُّهر وارتفعت الحرارة إلى أقصى حدٍّ غير أنَّ صيف الحلبة صيف مُحتَمل، ومضيتُ أتساءل عن كيفية الرجوع إلى الفندق، عندما تهادى صوت في الجوِّ يصيح: الله أكبر.

وثَب قلبي في صدري وثبةً عنيفةً أشعلت النَّار في حواسي. رَبَّاه، إنه أذان. هذا مؤذِّن يدعو إلى الصلاة، فهل الحلبة دار إسلامية؟ واندفعتُ على هدي الصوت، حتى وجدتُ جامعًا عند مدخَل شارع. لم أسمع هذا الصوت، ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن. إني أُولد من جديد، وكأنما أكتشف الله لأول مرة، ودخلت المسجد، توضَّأتُ، ووقفتُ في صفٍّ ورحتُ أصلِّي الظُّهر في فرحة متوهِّجة، بعين دامعة، وصدْر مُنشرح، وتمَّت الصلاة ومضى الناس ينصرفون، ولكني تسمَّرتُ في مكاني حتى لم يبقَ في الجامع إلا الإمام وأنا. هرولتُ نحوه، حويتُه بين ذراعيَّ، وانهلتُ عليه تقبيلًا، استسلم لانفعالي هادئًا مُدرِكًا باسمًا، ثم تمتم: أهلًا بالغريب.

وجلسنا غير بعيد من المحراب. قدَّمتُ له نفسي فقدَّم لي نفسه، الشيخ حمادة السبكي، من أهل الحلبة الصميمين، قلتُ بأنفاس مضطربة وصوت متهدِّج: ما تصورتُ أَنَّ الحلبة دار إسلامية.

فقال بهدوء: الحلبةُ ليست من ديار الإسلام.

ولَمَّا قرأ دهشتي قال: الحلبة دار الحرية، تُمثَّل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون، بل فيها ملحدون ووثنيُّون.

فازددتُ دهشةً وسألتُه: كيف تَأَتَّى ذلك لها يا مولاي؟

فقال ببساطة: كانت في الأصل وثنية، وأتاحت حريتها الفرصة لكل من شاء أن يدعوَ إلى دينه، وتوزَّعت الديانات أهلها، فلم تبقَ اليوم إلا قلَّة من الوثنيين في بعض الواحات.

فسألتُه واهتمامي يتصاعد: وبأي دين تلتزم الدولة؟

– الدولة لا شأن لها بالأديان.

– وكيف توفِّق بين أهل الملل والنحل؟

فقال بوضوح: تعامل الجميع على قَدَم المُساواة الكاملة.

فسألته كالمُحتجِّ: وهل يرضون بذلك؟

– كلُّ طائفةٍ تحتفظ في داخلها بتقاليدها الذاتية، والاحترام يسود العَلاقات العامة، لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها، وبالمناسبة أخبرك بأنَّ رئيسنا الحالي وثني.

دار مذهلة ومزلزلة للدماغ. وقلت مُتفكِّرًا: حرية لم أسمع عنها من قبل، هل أتاك يا مولاي حديث المظاهرة التي تطالب بالاعتراف بشرعية العَلاقات الشاذة؟!

فقال الإمام باسمًا: فيها مسلمون أيضًا!

– لا شك أنهم يتعرَّضون للجزاء داخل طائفتهم.

نزع الشيخ عِمامته؛ فمسح على رأسه ثم أعادها وهو يقول: الحرية هي القيمة المُقدَّسة المُسَلَّم بها عند الجميع.

فقلتُ مُحتجًّا: هذه حرية جاوزت الحدود الإسلامية.

– لكنها مقدَّسة أيضًا في إسلام الحلبة.

فقلتُ وأنا أكابد خيبةَ أمل: لو بُعث نبيُّنا اليومَ لأنكرَ هذا الجانب في إسلامكم.

فتساءل بدوره: ولو بُعث عليه الصلاة والسلام، أمَا كان ينكر إسلامكم كلَّه؟!

آه .. صدَق الرجل وأذلَّني بتساؤله، وقال الإمام: طوَّفت بديار الإسلام كثيرًا.

فقلت بأسًى: من أجل ذلك قمتُ برحلتي يا شيخ حمادة، أردتُ أن أرى وطني من بعيد، وأن أراه على ضوء بقية الديار، لعلِّي أستطيع أن أقول له كلمة نافعة.

فقال الشيخ باستحسان: أحسنت، وفَّقك الله، وستأخذ من دارنا أكثر من عبرة!

قلت وقد عاودني حُبُّ استطلاع الرحَّالة: أمامنا — إذا سمحت — فُرَص لتبادُل الآراء، ولكن هل تستطيع الآن أن تُمدَّني بمعلومات عن نِظام الحكم في هذه الدار العجيبة؟

فقال الشيخ حمادة: إنه نظام فريد، لم يصادفك فيما رأيت ولن يصادفك فيما سترى.

– ولا دار الجبل؟

– لا أعرف شيئًا عن دار الجبل حتى أُدخلها في المقارنة، ما يصح أن تعرفه هو أن رئيس دولتنا يُنتخب تبعًا لمواصفات علمية وأخلاقية وسياسية، فيحكم مقدار عشر سنوات، ثم يعتزل ليحلَّ محله قاضي القضاة، وتجري انتخابات جديدة بين الرئيس المُعتزِل والمرشحين الجُدد.

فهتفتُ بحماس: نظام حسن.

– كان الأجدر بالمسلمين أن يبشِّروا به قبل غيرهم، هذا وللرئيس مجلسٌ من أهل الخبرة في جميع الأنشطة يُعاونه بالرأي.

– وهل رأيه مُلْزِم؟

– عند الاختلاف يعتزلون جميعًا، ويجري الانتخابات من جديد.

فهتفتُ: نِعْم النظام.

فواصل الشيخ حمادة السبكي حديثه: أمَّا الزراعة والصناعة والتجارة، فيقوم بها القادرون من الأهالي.

فقلتُ وأنا أتذكَّر بعض ما رأيت من مشاهد: لذلك يوجدُ أغنياء وفقراء.

فقال الشيخ: كما يوجد عاطلون ولصوص وقَتَلة.

فابتسمتُ قائلًا بنبرة ذات مغزًى: الكمال لله وحده.

فقال بجِديَّة: ولكننا قطعنا شوطًا لا يُستهان به في هذا السبيل.

– لو أنكم تطبِّقون الشريعة!

– لكنكم تطبقونها.

فقلت بإصرار: الحق أنَّها لا تُطبَّق.

– الالتزام هنا بالمرجع، وهو يُطبِّق نصًّا ورُوحًا.

– ولكن الدولة مُلتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يُخَيَّل إليَّ.

– وبالمشروعات العامَّة التي يعجز عنها الأفراد؛ كالحدائق، والجسور، والمتاحف، ولها مدارس بالمجَّان للنَّابغين من الفقراء، ومستشفيات بالمجَّان كذلك، ولكنَّ جُلَّ الأنشطة فردية.

فتفكَّرتُ مليًّا ثم سألتُه: لعلَّكم تعتبرون أنفسكم أسعدَ البشر؟

فهزَّ رأسه جادًّا وقال: إنه حُكمٌ نِسْبيٌّ يا شيخ قنديل، ولا يُمكن أن يُطلق بثقةٍ كاملة ما دام يُوجد أغنياء وفقراء ومُجرمون، فضلًا عن ذلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من

الأطماع المُتبادَلة بيننا وبين الحيرة في الجنوب، وبيننا وبين دار الأمان في الشمال، فهذه الحضارة الفريدة مُهدَّدة، وقد تندثر في موقعة، وقد تتدهور حتى مع النَّصر إذا اجتاحتنا الخسائر، ثم إن الاختلافات الدينية لا تمرُّ دائمًا بسلام.

وسألني عن برنامج رحلتي فلخَّصتُ له ما صادَفني مذ تركتُ الوطن، فحَزِنَ الرَّجُل لي، وتمنَّى لي التوفيق، قال: أنصحك باكتراء هودج سياحة؛ فمعالم العاصمة أكثر من أن تُحيط بها بنفسك، وعندنا مدن أخرى كثيرة تستحقُّ المشاهدة، أمَّا العثور على عروسة في دارنا فأيسر منه الوصول إلى دار الجبل.

فقلت بأسًى: إني أدرك ذلك تمامًا، ولكنَّ لي مطلبًا آخر هو أن أزور حكيم الحلبة.

فقال بدهشة: ماذا تعني؟ للمشرق حكيمها، وللحيرة حكيمها، أمَّا هنا فمراكز العلم تموج بالحكماء، وستجِدُ عند أيٍّ منهم ما ترغب في معرفته وأكثر.

شكرتُ له حديثه، ومودَّته، وقمتُ وأنا أقول: آنَ لي أن أذهب.

فأمسَكَ بي قائلًا: بل سنتغدَّى معًا في بيتي.

رحَّبتُ بالدَّعوة؛ لأنغمس في حياة الحلبة، سِرْنَا معًا حوالي ربع ساعة إلى شارع هادئ، تحفُّ به أشجار الأكاسيا على الجانبين، واتجهنا إلى عمارة أنيقة يُقيم الإمام في دَوْرها الثاني، لم أشكَّ أن الإمام من الطبقة الوسطى، ولكن جمال حجرة الاستقبال دلَّني على ارتفاع مستوى المعيشة في الحلبة، وصادفتني تقاليد غريبة تُعتبر في وطني بعيدة عن الإسلام، فقد رحَّبت بي زوجة الإمام وكريمتها بالإضافة إلى ابنيه. وتناولنا الغداء على مائدة واحدة، بل قُدِّمت إلينا أقداح نبيذ، إنَّه عالَم جديد وإسلام جديد. وارتبكتُ لوجود المرأة وكريمتها، فمنذ بلغتُ مشارف الشباب لم تجمعني مائدة طعام مع امرأة لا أستثني من ذلك أمي نفسها. ارتبكت وغلبني الحياء، ولم أمسَّ قدَح النَّبيذ. قال الإمام باسمًا: دعوه لما يُريحه.

فقلت: أراك تأخذ برأي أبي حنيفة؟

فقال: لا حاجة بنا إلى ذلك؛ فالاجتهاد عندنا لم يتوقَّف، ونحن نشرب مجاراة للجوِّ، والتقاليد ولكنَّنا لا نسكر.

كانت زوجه ستَّ بيت، أمَّا سامية كريمته فكانت طبيبةَ أطفال بمستشفًى كبير، وأمَّا الابنان فكانا يُعِدَّان نفسيهما ليكونا مدرِّسَين، وأذهلتني انطلاقة الأُمِّ وكريمتها في الحديث أكثر مما أذهلني العُرْي في المشرق، تحدثتا بتلقائية وشجاعة وصراحة كالرِّجال سواء بسواء. وسألتني سامية عن الحياة في دار الإسلام، وعن دَوْر المرأة فيها، ولَمَّا وقفَت على

واقعها انتقدَته بشدة، وراحَت تَعْقِدُ المقارنات بينه وبين المرأة في عهد الرسول، والدَّوْر الذي لعِبَته، حتى قالت: الإسلام يذوي على أيديكم، وأنتم تنظرون.

وتأثَّرتُ أيضًا بجمالها وشبابها، وضاعف من تأثُّري طول حرماني وتقدُّمي في السن. وحكى لهم الإمام جانبًا من حياتي ورحلتي وهدفي منها. قال: على أيٍّ حالٍ فليس هو من المستسلمين.

فقالت سامية لي: إنك تستحق الإعجاب.

فبلغ بي التأثُّر مداه، وجاء العصر فأدَّينا صلاته جميعًا وراء الإمام مما دعاني إلى التفكير والتأمُّل أكثر، وغادرتُهم بجسدي، وهم يحتلُّون بعُمقٍ صميم روحي، وفي الطريق ثار بي الحنين إلى الاستقرار والدفء والحب. أين عروسة؟ أين دار الجبل؟ ضاع الشباب تحت الأرض، فمتى أَستقرُّ وأُكوِّن أسرة وأُنجِب ذريَّة؟ حتى متى أظلُّ ممزَّقًا بين نداءَين؟!

وفي اليوم التالي اكتريتُ هودجًا، طاف بي بمعالم العاصمة الهامَّة، مراكز التعليم، القلاع، المصانع الكبرى، المتاحف، الأحياء القديمة. وأخبرَني المُرْشد أنَّ أهل الدِّيانات المُخْتلفة يمثِّلون سِيَر أنبيائهم في الجوامع والكنائس والمعابد؛ فأعلنت عن رغبتي في مشاهدة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، فمضى بي إلى أكبر جامع في العاصمة، وجلستُ بين المشاهدين، وراح قومٌ يمثِّلون السِّيرة في باحة الجامع من بدايتها إلى نهايتها. رأيتُ فيما خُيِّل إليَّ النبيَّ والصحابةَ والكُفَّار، وهو ما اعتبرتُه جرأةً تُقارِب الكفر، ولكن كان عليَّ أن أرى كلَّ ما يستحق التسجيل. وأَثَّر فيَّ الشخصُ الذي يقوم بدَوْر الرَّسول للحدِّ الذي صدَّقْتُه، فانفعلتُ به انفعالًا فاقَ كلَّ تصوُّر حتى رأيتُه في المنام. وقلتُ لنفسي: إنَّ ما يدهشني حقًّا هو أن إيمان هؤلاء الناس صادق وأمين.

ودعوتُ الإمام وأسرته للغداء في الفندق، فتوثَّقَت عَلاقتي بهم أكثر. وقال لي الشيخ: سأُعِدُّ لك لقاءً مع حكيم ذي مكانة يُدعى مرهم الحلبي.

فشكرتُ له اهتمامه بي، وقضينا وقتًا طيبًا، وخفَق قلبي بالسرور والانشراح طُول الوقت. وفي صباح اليوم التالي غادرتُ حجرتي بالفندق لزيارة الحكيم. غير أنني وجدتُ كثيرين من النُّزلاء مُجتمِعين في مدخَل الفندق، وهم يخوضون في حديث أثار اهتمامهم فيما بدا إلى أقصى حدٍّ.

– الخبر يقول إنَّ قائدًا من قوَّاد الحيرة ثار على الملك، ولكنه فشِل فهرب إلى دار الحلبة.

– أتعني أنه يُقيم الآن في الحلبة؟
– يُقال إنه يُقيم في واحة من واحات الحلبة.
– المُهم أنَّ ملك الحيرة يُطالب بالقبض عليه وتسليمه له.
– لكن ذلك مخالف لمبادئ «المرجع».
– وقد رفض طلبه.
– هل تنتهي المسألة عند هذا الحد؟
– إنهم يتهامسون عن حرب.
– وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة، وهاجمت دار الحلبة؟!
– هذه هي المشكلة الحقيقية.

تسلَّل القلق إلى أعماقي أنا الذي تُطاردني الحروبُ من دار إلى دار. وأردتُ الذَّهاب إلى الحكيم، ولكن هالني أن أرى الميدان وهو يتلقَّى مظاهرات عديدة كأنما كانت على ميعاد. اضطُررت للبقاء في مدخل الفندق، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة في غاية. مُظاهرة تُطالب بتسليم القائد الهارب. مُظاهرة تُنذر مَن يُسلِّمه بالويل. مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة. مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأيِّ ثمن، ملكتني الحيرة، وتساءلت عمَّا يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هذه الآراء المتضاربة، وانتظرتُ حتى خلا الميدان فذهبتُ مُسْرعًا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخِّرًا ساعة عن الميعاد. استقبلني في حجرة أنيقة حوت الكتب والمقاعد والشِّلَت معًا. وجدتُه طويلًا نحيلًا في الستين من عمره، أبيض الشعر واللحية، يرفُل في عباءة زرقاء خفيفة. قَبِل اعتذاري عن التأخير، ورَحَّب بي، ثم سألني: أيهما تُفضِّل، الجلوس على المقاعد أم الشِّلَت؟

فقلتُ باسمًا: الشَّلْتة أحبُّ إليَّ.

فقال ضاحكًا: هكذا العرب، إني أعرفكم، زرتُ بلادكم، ودرست معارفكم.

فقلت بحياء: لست من علماء وطني ولا فلاسفته، ولكني مُحِبٌّ للمعرفة، ومن أجل ذلك قمتُ بهذه الرحلة.

فقال بهدوء مشجِّع: في هذا ما يكفي، وما هدَفُك من الرحلة؟

فتفكَّرتُ مليًّا ثم قلت: زيارة دار الجبل.

– لم أعرف أحدًا زارها أو كتب عنها.
– ألم تُفكِّر يومًا في زيارتها؟

فقال باسمًا: من آمن بعقله أغناه عن كل شيء.

فقلتُ مُستدركًا: دار الجبل ليست بغايتي الأخيرة، ولكني أرجو أن أرجع منها إلى وطني بشيء يُفيده.

– أرجو لك التوفيق.

فقلت كالمعتذر: الحقُّ أني جئتُ لأسمع لا لأتكلم.

– هل لديك سؤالٌ يشغلك؟

فقلتُ باهتمام: حياة كلِّ قوم تتكشَّف عادة عن فكرة أساسية.

فاعتدل في جلسته وقال: لذلك يسألنا محبُّو المعرفة من أمثالك كيف صنعتم حياتكم.

– وحياتكم جديرة بإثارة هذا السؤال.

– الجواب بكلِّ بساطة، لقد صنعناها بأنفسنا.

فتابعتُه في تركيز وصمت، فقال: لا فضل في ذلك لإله، آمن مفكِّرنا الأول بأنَّ هدف الحياة هو الحرية، ومنه صدر أول دعوة للحرية، وراحَت تتسلسل جيلًا بعد جيل.

وابتسم، وصمت حتى تَستقِرَّ كلماتُه في مُستقَرِّها من نفسي، وقال: بذلك اعتُبِر كل تحرُّر خيرًا وكل قيد شرًّا، أنشأنا نظامًا للحكم حرَّرنا من الاستبداد، وقدَّسنا العمل ليُحرِّرنا من الفقر، وأبدعنا العِلم ليُحرِّرنا من الجهل، وهكذا .. وهكذا .. فإنه طريق طويلة بلا نهاية.

حفِظتُ كلَّ كلمة بدرَت منه باهتمام بالغ، أمَّا هو فقد واصل حديثه قائلًا: لم يكن طريق الحرية سهلًا، ودفعنا ثمنه عَرَقًا ودمًا، كنا أسرى الخُرافة والاستبداد، وتقدَّم الروَّاد، وضُربت الأعناق، واشتعلت الثورات، ونشِبت حروب أهلية، حتى انتصرت الحرية وانتصر العلم.

حنيتُ رأسي مُظهِرًا إعجابي؛ فراحَ ينقد أنظمة دار المشرق ودار الحيرة، ويسخر منهما، بل سخِر أيضًا من نظام دار الأمان التي لم أزرها بعد، وحتى دار الإسلام، لم تسلَم من حِدَّة لسانه، والظاهرُ أنَّه قرأ تغيُّرًا في صفحة وجهي فسكت، ثم قال بنبرة المُعْتذِر: إنكم لا تألفون الرأي الحر.

فقلتُ بهدوء: في حدود مُعيَّنة.

فقال مُتراجعًا: معذرة، ولكن عليك أن تُعيدَ النظر في كل شيء.

فقلتُ مدافعًا: داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين.

فقال بحماس: الحرية مسئولية لا يستطيع الاضطلاع بها إلا القادرون، وليس كلُّ مَن ينتمي إلى الحلبة أهلًا لهذا الانتماء، لا مكان للعَجَزة بيننا.

فتساءلتُ بحرارة: أليست الرحمة قيمة مثل الحرية؟!

– هذا ما يردِّده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجِّعون العَجَزة على البقاء، أمَّا أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الرحمة أو العدالة، يجب أولًا أن نتَّفق على من يستحق الرَّحمة ومن يستحق العدالة.

– إني أخالفك في ذلك حتى النهاية.

– أعرفُ ذلك.

– لعلك تُرحِّب بالحرب!

فقال بوضوح: إذا وعدَت بمزيد من الحرية، ولست أشكُّ مُطلقًا في أنَّ انتصارنا على الحيرة والأمان خيرُ ضمانٍ لسعادة شعبيهما.

وبهذه المناسبة إنني على مبدأ الجهاد في الإسلام.

وراح يُفسِّره تفسيرًا عدوانيًّا، فتصدَّيتُ لتصحيح نظريته، ولكنه لَوَّحَ بيده باستهانة وقال: لديكم مبدأ عظيم، ولكنكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف به.

فسألته: إلى أي دين تنتمي أيها الحكيم مرهم؟

فأجاب باسمًا: دينٌ إلهُه العقل ورسوله الحرية.

– وجميع الحكماء مثلك؟

فقال ضاحكًا: ليتني أستطيع أن أزعم ذلك.

وجاءني بكتابين؛ الأول هو: «المرجع» أو القانون الأول في الحلبة، والثاني من تأليفه وعنوانه: «اقتحام المستحيل». وقال: اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها.

فشكرت له كرمه كما شكرتُ له حُسن ضيافته، ثم ودَّعتُه وانصرفت، وتناولتُ الغداء في الفندق، وكانت الألسنة جميعًا تلهَج بالحرب. وذهبتُ عصرًا إلى الجامع فصلَّيتُ وراء الشيخ حمادة السبكي، ودعاني إلى مُجالسته فلبَّيتُ مسرورًا، وإذا به يسألني باسمًا: هل عثرت على عروسة؟

فقلت بجِديَّة: التعلُّق بعروسة وهمٌ لا معنى له!

فصدَّق على قولي قائلًا: هذه هي الحقيقة.

ثم سألني بعد صمت قصير: هل تمضي في رحلتك مع أوَّل قافلة؟

فقلت وأنا أشعر بشيء من الحرَج: كلا، أريد البقاء فترة أخرى.

– قرار حسن، ويتوافق مع الأحداث المُتلاحقة، فقد منع ملك الحيرة سير القوافل بين الحيرة والحلبة كردٍّ على رفْضنا تسليمَ القائد الهارب.

فدهِشتُ وقلِقتُ، فقال الشيخ: وقد غضِب كِبار مُلَّاك الأراضي ورجال الصناعة والتجارة وعقدوا مع الحاكم اجتماعًا خطيرًا، يطالبون فيه بإعلان الحرب.

فتساءلتُ بقلق: وكيف يكون موقف دار الأمان؟!

فقال الشيخ باسمًا: كأنك صرتَ من أهل الحلبة! الخلافُ بين الحلبة والأمان يدور حول مِلكيَّة بعض عيون الماء في الصَّحْراء الممتدَّة بيننا وبينهم، سيُسوَّى النزاع لصالح الأمان فورًا؛ كي لا تفكِّر في الغدر.

فقلتُ بقلق: إني غريب. ونُذُر الحرب تتطاير من حولي.

– أفضل ما تفعل أن تبقى في الحلبة، وإن طال المُقام فلديك من المال ما يُيسِّر لك عملًا مُثمرًا.

تخلَّيتُ عن القافلة رغم إشفاقي من أن تكون آخر قافلة تقوم نحو دار الأمان. شدَّتني الحلبة إليها بقوة؛ بما وجدتُ في جوِّها من نقاء، وما آنستُ في بعض أهلها من أمل، وقَسَّمتُ وقتي بين السياحة وأسرة الشيخ حامد السُّبكي، أمَّا عروسة فكانت تحلِّق مع نجوم الليل، وتشبَّعت الحياة اليومية بخواطر الحرب، واستاء كثيرون للتنازلات التي نالتها دار الأمان دون أن تسفك لها نقطة دم، وقال لي مدير الفندق مُتجهِّمًا: رغم تضحيَّتنا بعيون المياه فقد تغدِر بنا دار الأمان.

وتوتَّرت الأعصاب لأقصى حدٍّ وانتقلَت إليَّ عدواها فأصابني ما أصاب الناس من حولي، وأفزعَتني السَّاعات المحدودة التي أُمضيها في وَحْدة بالفندق ما بين السياحة وأسرة آل السبكي. وثارت أعصابي، وطالبتني بالإشباع والاستقرار. ولمَّا أعلنت الحلبة الحرب، وأرسلت جيشها إلى الحيرة، ثارت أعصابي أكثر، ورحتُ أُنقِّب في العاصفة الحمراء عن كهفٍ آمنٍ ألوذ به، وتحدَّث النَّاس عن الحرب، ووازَنوا بين القوات والإمكانيات، وانحصرتُ أنا بعنف في التماس أسباب الإشباع والاستقرار. نسيتُ كلَّ شيء إلا هذا الهدف القريب، كأنني في سباق أو مطاردة، وشجَّعني على ذلك جوُّ الأسرة وصداقة سامية الصادقة لي، وإعجابها بالرحَّالة، وعَطْفها على أحزانه الطويلة، قلتُ لنفسي: «إنها فتاة كاملة، ولا حياة لي بدونها». وقلت للشيخ الإمام: توكَّلتُ على الله وقرَّرتُ أن أتزوج.

فتساءل الشيخ: هل عثرتَ على عروسة؟

فقلت في حياء: انتهت عروسة على أيِّ حال.

– هل وقع اختيارك على أحد؟

فقلتُ بهدوء: مطلبي عندكم.

فابتسم ابتسامة مُشجِّعة وتساءل: أتتزوَّج كرَحَّالة أم مُقيم؟

فقلتُ بصدق: لا أظن أنَّ الحُلم سيتلاشى.

– كل شيء يتوقَّف على إرادتها، لمَ لا تكلِّمها بنفسك؟

فارتبكتُ وقلتُ: يُستحسن أن تنوب عني.

فقال بعطف: ليكن، إني أدرك موقفك.

– وتلقَّيتُ الموافقة في اليوم التالي. وكنتُ مُتلهِّفًا فاستجابوا لي، استأجرت شقَّة في نفس الشارع. تعاونَّا على تأثيثها. وتم العَقْد في هدوء يُناسب ظروف الحرب. وجمَعَنا بيتُ الزوجية فسعِد قلبي واستعدتُ توازني. وجاءت أنباء القتال مُشجِّعة، ولكنَّ الحزن شقَّ طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر لها. واقترح عليَّ الشيخ حامد السبكي المشاركة في محلٍّ لبيع التُّحف والحلي، فوافقتُه بحماس. وكان شريكاي شقيقَين مسيحيَّين، وكان محلُّهما يوجد بميدان الفندق، واقتضى العمل أن أبقى في المحلِّ معهما سَحابة النَّهار، فأقبلتُ على العمل — لأول مرة في حياتي — بنشاط محمود. وكانت سامية تمضي نفس الوقت في المستشفى. وقد قالت لي: يجب أن تجعل من الحلبة مُقامك الدَّائم، أتمِم رحلتك إذا شئت ولكن لتكن العودة إلى هنا.

فقلتُ بصراحة أيضًا: قد أرى أن أرجع إلى وطني كما رسمتُ لأنسخ كتابي، ولا بأس من الإقامة هنا.

فقالت بسرور: في هذه الحال سأصحبك إلى وطنك في الذَّهاب والإياب، أمَّا الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة في حضارتها.

فتردَّدتُ قليلًا ثم قلتُ: يُخيَّل إليَّ أنَّ عملي الجديد سيدرُّ علينا رزقًا وفيرًا، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير في الاستقالة من عملك في المستشفى؟!

فضحكَت ضحكةً عذبةً وقالت: العمل في دارنا مقدَّس للمرأة والرجل على السواء، عليك أن تفكِّر من الآن فصاعدًا كرجل من رجال الحلبة.

فرنوتُ إلى بطنها بحنان وقلت: إنك في حكم الأم يا سامية.

فقالت بمرَح: هذا شأني أنا.

وتجلَّت الأُمومة للعين والصيف يطوي آخر صفحاته. ووردَت نسائم الخريف مُتْرَعة بالرُّطوبة وظلال السحب. وكلَّ يوم أكتشف من عالم زوجتي المحبوبة جديدًا. إنَّها مُعتزَّة بنفسها في غير غرور، مُغرَمة بالمناقشة، مؤمنة صادقة وبقوة انشرح لها صدري. لعَلَّ أعجب ما صادفتُه في رحلتي هو إسلام الحلبة الذي يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه.

قالت لي: الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أنَّ إسلامنا لم يُقفِل باب الاجتهاد، وإسلام بلا اجتهاد يعني إسلامًا بلا عقل.

ذكَّرني قولُها بدروس أستاذي القديم. غير أنِّي كنتُ مُغرَمًا بالأنثى الكائنة فيها، وملاحتها المُشبِعة لغريزتي المحرومة. طاردتُ تلك الملاحة بنهَم غيْر مُبالٍ بما عداها، غير أن شخصيَّتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب في ملاحة الأنثى النَّاضجة، وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع ذكاء لَمَّاع، ورأي مُستنير، وطيبة ممتازة، واقتنعتُ بتفوُّقها عليَّ في أمور كثيرة؛ فساءني ذلك، أنا الذي لم أرَ في المرأة إلا مُتعةً للرجل، وخالط ولعي بها حذَرٌ وخوف، ولكنَّ الواقع طالبني بالتكيُّف مع الجديد، ومُلاقاته في منتصف الطريق، حِرصًا عليه، وعلى سعادتي المتاحة، وقلت لنفسي: إنه لَسِرٌّ أن تهبَني نفسها بهذا السخاء، وإنني لَسعيدُ الحظِّ حقًّا.

ومداراةً لمخاوفي الدفينة قلتُ لها مرَّةً: إنك يا سامية كَنز لا يُقدَّر بثمن.

فقالت لي بصراحة: وفكرة الرحَّالة الذي يُضحي بالأمان في سبيل الحقيقة والخير تفتِنني كثيرًا يا قنديل.

وذكَّرتني بمشروعي النائم. أيقظَتني من سُبات الراحة والعسل. من الحُبِّ والأبوَّة والحضارة. وقلتُ كأنَّما لأستحثَّ المُستنيمة للواقع: سأكونُ أوَّل من يكتب عن دار الجبل.

فقالت ضاحكة: لعلك تجدها أبعد ما يكون عن الحُلم.

فقلتُ بإصرار: إذن أكون أول من يبدِّد الحُلم.

وانطوى الخريف وهلَّ الشتاء، ليس برْدُه أقسى من برْد وطني، ولكنه غزير الأمطار، ولا تُرى شمسه إلا في أوقات نادرة. وتشتدُّ به الرياح وتُزمجِر، ويقصف الرَّعد هائلًا فيحفِر أثَرَه في أعماق النَّفس. وتحدَّث الناس عن الحرب التي لا تُريد أن تنتهي، وشاركتهم في عواطفهم بصدق، فتمنيتُ أن تنتصر الحُرِّية على الملِك الإله، وأن يُولد وليدي المنتظَر في أحضان الحرية والأمان. ولحِقَت سامية بي في بيتنا ذاتَ مساء عائدةً من عمَلها، مُتألِّقة بفرحة أحيت نضارتها التي أضناها الحَمْل وهتفَت: أبشرْ، إنه النصر!

وراحت تخلع مِعْطَفها وتقول: سلَّم جيشُ الحيرة، انتحر الملِك الإله، وأمست الحيرة والمشرق امتدادًا للحلبة، وكُتبَت الحرية والحضارة لشعوبهما.

انتقلت الفَرْحَة إلى قلبي، غير أنَّ بعض المخاوف المتولِّدة من تجارب الماضي جعلَتني أتساءل: ألا يؤدُّون ثمن الهزيمة بطريقة ما؟

فقالت بحماس: مبادئ المرجع واضحة .. ولم يبقَ من عَقَبَةٍ قائمة في طريق الحرية إلا دار الأمان.

فقلتُ ببراءة: إنها على أيِّ حال لم تغدِر بكم، وأنتم تكابدون حربًا طويلة.

فقلتُ بجِدَّة: هذا حقٌّ، ولكنَّها عقبة في طريق الحرية.

وكان يوم عودة الجيش الظافر يومًا مشهودًا. خرجت الحلبة رجالًا ونساءً لاستقباله ورَشْقه بالزهور رغم برودة الجوِّ وانهلال المطر. وتواصلت الاحتفالاتُ على جميع المستويات أسبوعًا كاملًا. وسرعان ما لاحظتُ — ما بين الطريق ومحلِّ عملي في ميدان الفندق — أن حالًا غريبة، مناقضة للأفراح، تسري بقوة، وبلا تردُّد، ولا حذَر. تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبةً بالضيق والأسى. ووُزِّعت منشورات تتَّهم الدولة بأنَّها ضحَّت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والحيرة، ولكن من أجل مصالح مُلَّاك الأراضي والمصانع والمتاجر، وأنها كانت حرب «قوافل» لا مبادئ. وتلقَّيتُ منشورًا آخَر يتَّهم أصحاب المنشورات السابقة بأنَّهم أعداء الحرية، وعملاء دار الأمان. ونتيجةً لذلك قامت مظاهرات صاخبة تُهاجم دار الأمان، وتطعن في اتفاقية التنازل لها عن عيون الماء. واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة، وصدَر قرار بالإجماع بإلغاء اتفاقية عيون المياه، واعتبار العيون مِلكيَّة مُشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديمًا. ومضى الناس من جديد يتحدَّثون عن حرب جديدة مُحتَملة بين دارَي الحلبة والأمان.

وجاء الشيخ السبكي وأسرته للغداء على مائدتي، وجلسنا نتحادث ونتبادل الآراء، وقلتُ للشَّيخ كالمُحتجِّ: إذا كان هذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم، فكيف كان يكون الحال لو جاء نتيجةً لهزيمة؟!

فأجابني باسمًا: هذه هي طبيعة الحرية.

فقلت بصراحة: إنها تذكِّرني بالفوضى.

فقال ضاحكًا: هي كذلك لمن لم يتعامل مع الحرية.

فقلتُ بمرارة: ظننتكم شعبًا سعيدًا، ولكنكم شعوب تُمزِّقها الخلافات الخفيَّة.

– لا دواء إلا المزيد من الحرية.

– وكيف تحكُم أخلاقيًّا على إلغاء اتفاقية عيون المياه؟

فقال بجِديَّة: كنتُ أمس في زيارة للحكيم مرهم الحلبي، فقال لي: إنَّ تحرير البشر أهمُّ من هذه القشور.

فهتفتُ: القشور! .. لا بُدَّ من الاعتراف بأساسٍ أخلاقي .. وإلا انقلبَ العالَم إلى غابة!

فقالت سامية ضاحكة: لكنه كان وما زال غابة.

وقال الإمام: انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام فماذا تجد به؟ .. حاكمٌ مستبدٌّ يحكم بهواه. فأين الأساس الأخلاقي؟ ورجال دين يُطوِّعون الدين لخدمته. فأين الأساس الأخلاقي؟ وشعب لا يُفكِّر إلا في لقمته. فأين الأساس الأخلاقي؟

اعترضَت حلقي غُصَّة فسكتُّ، وعاودَتني ذكرى الرحلة فسألت: هل تقوم الحرب قريبًا؟

فقالت سامية: لن تقوم إلا إذا شعر أحد الطرفين بأنه أقوى، أو إذا غلبه اليأس.

وتساءلَت حماتي: لعلك تُفكِّر في الرحلة؟

فقلتُ باسمًا: يجب أن أطمئنَّ أولًا على سامية.

وأنجبت سامية وليدها الأول في أواخر الشتاء، وبدلًا من أن أتأهَّب للرحيل استسلمتُ للحياة الناعمة، ما بين البيت والمحل. انغمستُ في الحلبة، في الحب ووفرة الرِّزق والأبوة، والصداقة، وكنوز السماء، والحدائق التي لا نهاية لحُسْنها، ما حلمتُ بشيء أجمل من أن يدوم الحال، وتوالت الأيام حتى صرت أبًا لمصطفى وحامد وهشام. على أنني رفضتُ الاعتراف بالهزيمة، وكنتُ أقول لنفسي في حياء: آه يا وطني .. آه يا دار الجبل!

وكنت أُسجِّل بعض الأرقام في دفتر الحسابات بمحلِّ التحف عندما وجدت أمامي عروسة. ليس حُلمًا ما أرى ولا وهْمًا. هي عروسة ترفُل في وزْرة قصيرة، ومطْرَف مُطرَّز باللآلئ مما ترتديه نساء الطبقة المحترمة في فصل الصيف. لم تَعُد شابَّة، ولا منطلقة عارية، ولكنها ما زالت متوَّجة بجمال وقور مُحتشِم. كأنها معجزة انبثقت من المستحيل. كانت تقلِّب بين يديها عِقدًا من المَرجان، وأنا أتطلَّع إليها في ذهول. وحانت منها التفاتة إليَّ فالتصقت عيناها بوجهي وهما يتَّسعان، ونسيَت نفسها كما نسيتُ نفسي. ناديتُ مبتهلًا: عروسة!

فردَّدت بذهول: قنديل!

وترامقنا حتى قرَّرنا في وقت واحد أن نُفيق من ذهولنا، وأن نرجع إلى الواقع. قمتُ إليها فتصافحنا مُتناسين ما حلَّ بشريكي من دهشة، وسألتها: كيف حالك؟

– لا بأس، كل شيء طيِّب.

– مُقيمة هنا في الحلبة؟

– منذ تركت الحيرة.

وبعد تردُّد سألتُ: وحدك؟

– متزوِّجة من رجلٍ بوذيٍّ. وأنت؟
– متزوج وأب.
– لم أُنجب أطفالًا.
– أرجو أن تكوني سعيدة.
– زوجي رجل فاضلٌ وتقيٌّ، وقد اعتنقتُ دينه.
– متى تزوَّجتِ؟
– منذ عامين.
– يئستُ من العثور عليكِ.
– إنها مدينة كبيرة.
– وكيف كانت حياتك قبل الزَّواج؟

فلوَّحت بيدها بامتعاض، وقالت: كان عامَ معاناةٍ وعذاب!

فتمتمتُ: يا لَسوء الحظ.

فقالت باسمة: الختام حسن .. سنقوم برحلة إلى دار الأمان، ومنها إلى دار الجبل، ثم نسافر إلى الهند.

فقلتُ بحرارة: لتحلَّ بكِ بركة الله في كل مكان!

ومدَّت لي يدها فتصافحنا، وتناولت مشتراها، ثم ذهبتُ بسلام، وجدتُ نفسي مطالَبًا بإلقاء ضوء على الموقف أمام شريكيَّ. وواصلت عملي كاتمًا انفعالاتي، مع اعتقادٍ راسخٍ بأنَّ كلَّ شيء قد انتهى. واعترفتُ لسامية بما كان، وببساطة ولا مبالاة، ولم أخلُ من شعور بالإثم إزاء ما اضطرم به صدري من اهتمام زائد. اهتَزَّ اهتزازةً عنيفة، وتفجَّرَت من جدرانه ينابيعُ أسًى وحنين. غمرَته دفقات حارَّة من الماضي حتى أغرقَته، ولا أستبعدُ أنَّ الحُبَّ القديم رفع رأسه ليُبعث من جديد، ولكن الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن تعبث به الرياح. غير أن الرغبة الكامنة في الرحلة استيقظت في روعة ووثبَت إلى المقدمة مُتطلِّعة إلى الغدِ بإرادة صُلْبة لا تَلين، وخشيتُ أن أندفع إلى تنفيذها فأجلب على نفسي الظنون؛ فاتخذتُ قرارًا بتأجيلها عامًا، على أن أمهِّد لها في أثناء العام بما يهيِّئ الأنفُس لتقبُّلها.

وقد كان.

وأذِنَت لي زوجتي المحبوبة بلا حماس وبلا فتور، ووكَّلت عني الشيخ الإمام ليحلَّ محلِّي في التجارة لحين عودتي، وخصَّصت للرحلة من الدنانير ما يُوفِّر لي حياة كريمة،

ووعدت بالعودة إلى الحلبة عَقِب الرحلة، على أن أصطحب زوجتي وأبنائي إلى دار الإسلام، فأنسخ كتاب الرحلة، وألقى الباقين على قيد الحياة من أهلي، ثم نرجع إلى الحلبة.

وأشبعتُ أشواقي من سامية ومصطفى وحامد وهشام، وتركتُ زوجتي وهي تستقبل في جوفها حياة جديدة.

دار الأمان

تحرَّكت القافلة تشقُّ ظُلماتِ الفَجْر مُستقبلةً طلائعَ الصيف. الشيخ السبكي قال لي عن جوِّ دار الأمان: شتاؤها قاتل، خريفها قاسٍ، ربيعها لا يُحتمَل، فعليك بالصيف.

وكالعادة ذكَّرتني القافلة بالأيام الماضية، ولكني أمسيتُ كهْلًا يتأثَّر بقدر. وشعشع ضوء النَّهار فكشف صَحْراء جديدة، كثيرة التلال، تَحدُّ جوانَبها وديان منخفضة، وتنتشر بأرجائها نباتات شوكية كالقنافذ، تتميز بخضرتها اليانعة ووحشيتها المثيرة. وبعد أسابيعَ من السير بلغنا منطقة مياه العيون، وهي كثيرة، ولكنها لا تبرِّر نُذُر الحرب التي تُهدِّد بها سلام دارين كبيرتين كالحلبة والأمان. وتواصل السير في أرض آخذة في الارتفاع التدريجي حتى عسكرنا في هضبة النسر. وقال قائد القافلة: سوف نتحرك عند منتصف الليل لنصِلَ فجرًا إلى سور دار الأمان.

وواصلنا السير في جوٍّ لطيف حتى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل. ووقفنا أمام البوَّابة، تَقدَّم منا رجلٌ بين حاملي المشاعل وصاح بصوت غليظ: أهلًا بكم في الأمان عاصمة دار الأمان، أهلًا بكم في دار العدالة الشاملة!

وصمت الرجل دقيقة ثم قال: سيذهب التجار مع مرشد إلى المركز التِّجاري، أما الرحَّالة فيذهبون إلى مركز السياحة.

لم أذهب إلى فندق مباشرة، كما فعلتُ في المشرق والحيرة والحلبة، ولكني تبِعتُ المرشد إلى دارٍ رسميةٍ صغيرةٍ متينةِ البنيان، نظيفة، تقوم في رعاية حُرَّاسٍ مُسلَّحين، واقتدت إلى حجرة مُضاءة بالمشاعل يتصدَّرها موظف وراء مكتب، وعلى جانبيها حارسان كأنَّهما تمثالان. مثَلتُ أمامه فسألني عن اسمي، وعمري، وما أحمل من دنانير، وعن تاريخ رحلتي والهدف منها، ولذت بالصدق المطلق، فقال الرجل: سأعتبرك من أهل الحلبة بعد أن تقبَّلتَها دارًا للعمل والإقامة الزوجية.

فلم أعترض، فقال: سنسمح لك بإقامة عشرة أيام، وهي كافية لما يُريده السائح.

فسألتُ: وإذا طابت لي الإقامة ورغِبتُ في مدِّها؟

في تلك الحال تُقدِّم طلبًا برغبتك لننظر فيه، ونُقرِّر قَبوله أو رفْضه، فأحنيتُ رأسي راضيًا مُخْفيًا في الوقت نفسه دهشتي، فرجع يقول: وسنُعيِّن لك مرافقًا ملازمًا.

فسألتُه: هل يُعرَض عليَّ لأقبله أو أرفضه؟

– بل هو نظام مُتَّبع لا مفرَّ منه لخير الغرباء!

وصفَّق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير في الستين، يرتدي نفس الملابس المكوَّنة من سترة كأنها جبَّة قصيرة، ووزْرة تصل إلى الركبتين، وصندل، وطاقية كأنها خُوذة من قطن أو كتَّان. قال الموظف وهو يردِّد رأسه بيننا: قنديل محمد العنَّابي سائح، فلوكة مرشدك ومندوب مركز السياحة.

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعني صامتًا كأنه ظِلِّي، وقد سلبني روح المغامرة والحرية. وخطا خطوة واسعة فصار إلى جانبي فخضنا الظلام معًا مستأنسين بأضواء النُّجوم ومشاعل حُرَّاس الأمن. قال باقتضاب: نحن في الطريق إلى الفندق.

ومن خلال ميدان مربَّع اقتربنا من الفندق الذي لاح على ضوء المشاعل فخمًا عظيمًا، لا يقلُّ روعةً عن فندق الحلبة. أمَّا الحجرة فكانت أقلَّ في المساحة، وأكثر بساطة، ولكن لا ينقصها شيء من أسباب الراحة، كما كانت بالغة النظافة، ولاحظتُ وجود سريرين بها جنبًا إلى جنب فتساءلتُ بقلق: ما معنى وجود السرير الآخر؟

فأجاب فلوكة بهدوء: إنه لي.

فسألتُه باحتجاج لم أُعْنَ بإخفائه: أتنام معي بحجرة واحدة؟

– طبعًا، ما معنى أن نَشغَل حجرتين إذا كان يكفي أن نَشغَل حجرةً واحدة؟

فقلت باستياء: قد يطيب لي أن أنفردَ بحجرة.

فقال دون أن يخرج عن هدوئه: ولكن هذا هو النظام المتَّبع في دارنا.

فتساءلت مُتذمِّرًا: إذَن لن أحظى بالحرية هنا إلا في دورة المياه.

فقال ببرود: ولا هذه أيضًا.

– أتعني ما تقول حقًّا؟

– لا وقت لدينا للهذر.

فقطَّبتُ هاتفًا: الأفضل أن أُلْغيَ الرحلة.

– لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيام.

وراح يُغيِّر ملابسه ويرتدي جلباب النوم، ومضى نحو سريره وهو يقول: كلُّ شيء هنا جديد، فهو غير مألوف، فتحرَّر من أسْر العادات السيئة.

وانهزمتُ أمام الواقع فغيَّرتُ ملابسي، وركنتُ إلى فِراشي، وهرب مني النوم طويلًا من شدَّة الانفعال حتى غلبَني التعب.

ومع الصباح بدأ الحرج، غير أنِّي أمرُّ على الأشياء مَرَّ الكرام، ثم قادني فلوكة إلى بَهْو الطعام، فجلسنا إلى مائدة صغيرة، وتناولنا فُطورًا من اللبن والفطائر والبَيْض والفاكهة المسكَّرة، وهو يمتاز بالجودة والكفاية، فالتهمتُه تاركًا قدَحًا من الخمر لم أمسَّه. قال لي فلوكة: ستُقدَّم الخمر مع كل وجبة وهي ضرورية.

فقلت بإصرار: لا حاجة بي إليها.

فقال بهدوئه الملازم: عرَفتُ كثيرين من المسلمين يدمنونها.

فابتسمتُ ولم أعلِّق فقال متسائلًا: أتُصدِّق حقًّا أن إلهك يهمُّه أن تشرب خمرًا أو لا تشربها؟

ولَمَّا رأى تغيُّر وجهي قال برقَّة: معذرة!

وغادرنا الفندق معًا للقيام بجولتنا السياحية الأولى، ألقيتُ نظرة شاملة ثم ارتدَّ إليَّ طرْفي فيما يُشبه الخوف. هالني الخلاء. الميدان وما يتفرَّع عنه من شوارع، كلها خالية، لا أثَرَ فيها لإنسان. مدينة خالية، مهجورة، ميتة، إنها بالغة في نظافتها وأناقتها وحُسن هِندامها، في عمائرها الضخمة، وأشجارها الباسقة، ولكن لا أثَرَ للحياة بها. نظرتُ إليه منزعجًا وسألتُه: أين الناس؟

فأجاب بهدوئه المثير: إنهم في أعمالهم، نساءً ورجالًا.

فسألتُه بدهشة: ألا توجد امرأة غير عاملة؟ .. ألا يوجد عاطل؟

– الجميع يعملون، ولا يوجد عاطل، لا توجد امرأة غير عاملة، أمَّا العجائز والأطفال فسوف تراهم في حدائقهم.

فقلت غير مصدِّق: الحلبة تموج بالنَّشاط، ولكن شوارعها تكتظُّ دائمًا بالناس.

فتفكَّر مليًّا وقال: نظامنا لا شبيه له بين النُّظُم، كلُّ فرْد يُعدُّ لعمل ثم يعمل، وكل فرْد ينال أجره المناسب، الدار الوحيدة التي لا تعرف الأغنياء والفقراء. هنا العدل الذي لم تستطع دارٌ أخرى أن تُحقِّق جزءًا منه.

وأشار إلى العمائر ونحن ننتقل من شارعٍ خالٍ إلى آخَر: انظر، كلُّها عمائرُ عظيمة مُتشابهة، لا توجد سرايات ولا دُور منفردة، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسطة، الفروق

في الأجور يسيرة، الجميع متساوون إلا مَن يميزه عمله، وأقلُّ أجر يكفي لإشباع ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوًى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسلية أيضًا.

عَزَّ عليَّ التصديق، وقلتُ ما هو إلا كلام يحفظه عن ظهْرِ قلب، غير أنَّ منظر الشوارع والعمائر راعني. إنها لا تقلُّ في هندستها عن الحلبة نفسها. ومضى بي فلوكة إلى حديقة مترامية، يبلغها القاصد فوق جِسر كبير مُقام على نهر عريض. لم أشهد حديقة في اتساعها وتنوُّع أشجارها وأزهارها. قال فلوكة: إنها حديقةُ مَن طعَن بهم السنِّ فيما وراء مرحلة النشاط والعمل.

رأيتُ الطاعنين في السنِّ من الجنسين، يجدون في الحديقة مرتادًا للنزهة، وملاعب رياضيَّة خفيفة، ومجالس للسمر والغناء.

– في كلِّ مدينة حديقة مماثلة.

قال ذلك في ارتياح ومُباهاة، فقلت: إنَّه نظام حسَن ورعاية إنسانية لم أجِد لها مثيلًا في الدُّور السابقة، ولفت نظري كثرة المُعمَّرين ممن جاوزوا الثمانين على أقلِّ تقدير، ولم أُخفِ هذه الملاحظة عن فلوكة فقال من فوره: يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائيَّة الأصلية، مع تجنُّب الترف، وممارسة الألعاب الرياضية في أوقات معينة خلال ساعات العمل.

ومن طرائف ما شاهدتُ في الحديقة عروسان يقضيان شهر العسل، أرمل وأرملة في الحلقة الثامنة، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعية مُدلِّيَين ساقيهما في مائها المكتسي بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من أوراق الشجر التي تحنو فوقه .. واستأنستُ بالبشر فمكثتُ في الحديقة مدَّة طويلة، حتى قال لي فلوكة: آن لنا أن نزور حديقة الأطفال.

وكان يفصل بينهما وبين حديقة العجائز ميدان مُتَّسع، يكفي لأن تُنشأ فيه مدينة صغيرة، وترامت إلينا أصوات الصِّغار ونحن نقترب منها، وكانت مُترامية الأطراف كأنها دار مُستقلة، مُكتظَّة بسكانها ما بين الطفولة والصبا، وبها ملاعبُ لا حصرَ لها، وأركان للدراسة والتربية، ومربُّون ومربِّيات، فسألتُ صاحبي: أهي للَّهْو أم للتربية؟

فأجاب: للاثنين معًا، وهنا نكتشف المواهب المختلفة، ويتوجَّه كلٌّ بحسب استعداده، وكما يُرسَم له، وينوب المربُّون والمربِّيات عن الآباء والأمهات المنهمكين في أعمالهم.

فقلت ببراءة: ولكن لا شيء يعوِّض عن حنان الوالدين.

فقال فلوكة بهدوء: حِكَم وأمثال لم يعُدْ لها معنًى في دار الأمان.

لم يتَّسع النَّهار لزيارات جديدة، فتناولنا الغداء في الفندق، وكان مكوَّنًا من شواء، وقرنبيط، وخبز، وتفَّاح، ومضى بي إلى الميدان الكبير قبيل الغروب، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول: آن لك أن ترى أهل الأمان.

كان ثمة أربعة شوارع كبيرة تصبُّ في الميدان، ومع الغروب تجلَّت بشائرُ البشر كأنها ساعة البعث، وسرعان ما راح كلُّ شارع يقذِف بجموع لا يُحيط بها الحصر من النِّساء والرِّجال، لكلِّ طائفة زِيٌّ بسيط واحد كأنها فرقة جيش، ورغم أمواجهم المُتتابعة الهادرة تقدَّموا في نظام، لا يندُّ عنهم أكثر من همس، بوجوه جادَّة ومرهَقة، وخُطًى مسرعة. كلٌّ إلى هدفه يسير، للقادمين جانب وللذاهبين جانب، لا اضطراب ولا مرَح أيضًا، صورة مجسَّدة للمساواة والنِّظام والجِديَّة أثارت إعجابي بقدْرِ ما بعثَت فيَّ القلق والحَيرة، وبلغ الزِّحام ذروته ثم مضى يخفُّ وئيدًا، ولكن دون توقُّف حتى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام.

سألت فلوكة: إلى أين؟

– المساكن.

– ثم يرجعون كَرَّة أخرى للسهر؟

– بل يبقون حتى الصباح. أمَّا الملاهي فتُبعث فيها الحياة ليلة العُطْلة الأسبوعية.

فسألت بقلق: أيعني هذا أن ليالِيَنا ستُقضى في الفندق؟

فقال دون مبالاة: في فندق الغرباء ملهًى تجد فيه ما تشاء من شرابٍ ورقصٍ وغناء.

وقد سهِرنا به ليلتنا، فشهدت رقصًا غريبًا، وسمعتُ غناءً جديدًا، وبعض الألعاب السحرية، ولكنها لم تكن مختلفة اختلافًا جذريًّا عمَّا شهِدتُ وسمعتُ في الحلبة.

وفي اليوم التالي زُرْنا مصانع، ومتاجر، ومراكز للتعليم والطب. الحقُّ أنها لم تكن تقلُّ عن أمثالها في الحلبة عظمةً ونظامًا وانضباطًا، واستحقَّت دائمًا إعجابي وتقديري، وهزَّت عقيدتي الراسخة في تفوُّق دار الإسلام في الحضارة والإنتاج، غير أني لم أرتَحْ لتجهُّم الوجوه وصلابتها، وبرودها المخيِّم. هذه السجايا التي جعلت من مُرافقي فلوكة شخصًا لا غنى عنه ولا مسرَّة فيه.

وزرنا قلعة تاريخية جليلة الشأن، حُلِّيَت جُدرانها بالنقوش والصور، قال فلوكة: في هذه القلعة دارت آخرُ معركة انتهت بهزيمة الملك المستبد وانتصار الشعب.

ومضى بي إلى بناء ضخم كالمعبد وهو يقول: إليك محكمة التَّاريخ، هنا حُوكِم أعداء الشَّعب، وقُضي عليهم بالموت.

فسألتُه عمَّن يعني بأعداء الشعب، فقال: مُلَّاك الأرض، وأصحاب المصانع، والحكام المستبدُّون. لقد انتصرت الدولة بعد حرب أهلية طويلة ومريرة.

وتذكَّرت ما أخبرني به أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي من أنه لم يستطع أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهلية في دار الأمان. وتذكرتُ أيضًا تاريخ الحلبة الدامي في سبيل الحرية. وهل كان تاريخ الإسلام في دارنا دون ذلك دمويَّةً وآلامًا؟ فماذا يريد الإنسان؟ وهل هو حُلم واحد أو أحلام بعدد الدُّور والأوطان؟ وهل حقًّا وُجد الكمال بدار الجبل؟!

وسألني فلوكة: هل تُمضِي الليلة في الملهى كأمس؟

فأعلنتُ عن فتوري بالصمت فقال مُشجِّعًا: غدًا تحتفل الدار بعيد النصر، وهو يوم مشهود.

وتناولتُ العشاء ثم جلسنا في بَهْو المدخَل بالفندق نتلقَّى نسائمَ الصيف اللطيفة، وقلتُ لفلوكة: إني رَحَّالة كما ترى، وقد جرَت العادة في بلادي أن يُسجِّل الرحَّالة أنباء رحلته، وعلى ذلك تَلزمني معلومات كثيرة لا تكفي المشاهد الإلمام بها.

فأصغى إليَّ بهدوء دون أن ينبِس فقلتُ: يهمُّني أن أجتمع بحكيم من حُكماء داركم فهل تستطيع أن تُحقِّق لي رغبتي؟

فأجاب: حكماء دار الأمان مُستغرِقون بواجباتهم، ولكنني أستطيع أن أمدَّك بما تشاء من معلومات.

فهضمتُ خيبتي بسرعة مُصمِّمًا على خوض التجربة. قلت: أريد أن أعرف نظامكم السياسي، كيف تحكمون؟

فأجاب دون تردُّد: لنا رئيس منتخَب، تنتخبه الصَّفوة التي قامت بالثورة، وهي تُمثِّل صفوة البلدان جميعًا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة والحرب والأمن، ويتولَّى منصبه بعد ذلك مدى الحياة، ولكنهم يعزلونه إذا انحرف.

ذكَّرني ذلك بنظام الخلافة في دار الإسلام، ولكنه ذكَّرني أيضًا بمآسي تاريخنا الدامي فسألتُه: ما هي صلاحياته؟

– إنه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفن، إذ إن الدولة عندنا هي صاحبة كلِّ شيء، والرعايا موظفون كلٌّ يعمل في حقله، لا فرقَ في ذلك بين الكنَّاس والرئيس.

– ألا يعاونه أحد؟

– مستشاروه، والصَّفوة التي انتخبَته، ولكنه صاحب الرأي الأخير، ولذلك فنحن في مأمَنٍ من الفوضى والتردُّد.

فتردَّدتُ قليلًا ثم قلتُ: ولكنه أقوى من أن يُحاسَب إذا انحرف.

فخرج من بروده لأوَّل مرَّة وقال بجِدَّة: القانون هنا مُقدَّس.

ثم مواصلًا قبل أن أنبِس: انظر إلى الطبيعة، أساسها القانون والنظام لا الحرية.

– ولكن الإنسان دون الكائنات يتطلَّع دائمًا إلى الحرية.

– إنه صوت الشهوة والوهم، وقد وجدْنا أنَّ الإنسان لا يطمئنُّ قلْبُه إلا بالعدل؛ فجعلْنا من العدل أساس النظام، ووضعْنا الحرية تحت المراقبة.

– أهذا ما يأمر به دينكم؟

– نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان، ومدَّخر احتياجاته.

– الأرض؟!

– وهي لم تفعل لنا شيئًا، ولكنها خلقَت لنا العقل، وفيه الغنى عن أيِّ شيءٍ آخَر.

ثم واصل بكبرياء: دارنا هي الدار الوحيدة التي لن تُصادفك فيها أوهام أو خرافات!

استغفرتُ الله في سِرِّي طويلًا. قد يجدُ الإنسان لوثنيَّة دار المشرق عُذرًا، ومثلها دار الحيرة، ولكن دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض؟ .. وكيف تبوِّئ عرشها رجلًا منها فتُنزله منزلة المِلك الإله؟ إنها دار عجيبة، أثارت إعجابي لأقصى حدٍّ، كما أثارت اشمئزازي لأقصى حدٍّ. ولكن ساءني أكثر ما آلَ إليه حالُ الإسلام في بلادي، فالخليفة لا يقلُّ استبدادًا عن حاكم الأمان، وهو يُمارس انحرافاتِه علانيةً، والدين نفسه تهرَّأ بالخرافات والأباطيل، أمَّا الأُمَّة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض، فسبحان الذي لا يُحمَد على مكروهٍ سواه. ونمتُ ليلتها مُرهَقًا ورأيتُ أحلامًا مزعِجة، وأشرق يوم العيد. ولَمَّا كان يوم عُطْلةٍ عامَّة فقد تبدَّت العاصمة حيَّةً دافئةً طيلةَ النهار. وقادني فلوكة إلى ميدان القصر. رأيتُ القصر قلعة منيفة، وتحفة معمارية لا نظير لها، يمتدُّ أمامه ميدان هائل يتَّسع لألوف الألوف من البشر. اتخذنا موقعًا وسطًا وأخذ الناس يتوافدون ويقفون في نظام صفوفًا صفوفًا، فوق محيط الدائرة. تفرَّستُ في الوجوه بحبِّ استطلاعٍ شديد. يا لهم من صور مكرَّرة في الملابس واللون والوزن. بشرة لم تلفحها شمس مُحرِقة، وقامات قوية ونحيلة معًا، ووجوه أشرقت بالابتسام تحيَّةً للعيد، رغم تجهُّمها الدائم فيما عدا ذلك من أيام. جمال الوجوه في الحلبة أرفع درجة بلا شكٍّ، ولكن المساواة هنا تدعو للعَجب، ولذلك تقرأ الأعين طُمأنينة راسخة وشيئًا غامضًا يُنذر بالخمول.

ونُفخ في بوقٍ إيذانًا ببَدْء الاحتفال.

ومن أقصى نقطة في محيط الدائرة المواجهة للقصر تقدَّم موكبُ حاملات الورود، من فتيات مُتألِّقات بالشباب، يسرن في أربعة صفوف نحو القصر، ثم وقفْنَ في طابورَين متقابلَين أمام مدخَله الكبير، واندفعت الجموع تردِّد نشيدًا واحدًا، في قوة مؤثِّرة وجمال أيضًا. تصاعدَ الصوت في انسجام جامعًا الحشود في لحظةٍ وجدانيَّة واحدة مستوحاة من ذكريات حميمة مشتركة. وانتهى بتصفيقٍ حادٍّ استمرَّ دقيقتين، ومسَّني فلوكة بكوعه وهمَس في أُذني: الرئيس قادم.

نظرتُ نحو القصر فرأيتُ جماعة تتقدَّم من أعماق باحته، وكلما تقدمت وضحَت معالمها. الرئيس يتقدَّم تتبعه جماعة من الصَّفوة الحاكمة. وراح يمشي بحذاء محيط الدائرة؛ ليتبادل التحيات مع الجموع عن كثَب. ولَمَّا مرَّ أمامي لم يكن يفْصِله عن موقعي أكثر من أشبار. رأيتُه متوسِّط الطول، مُفرِطًا في البدانة، غليظَ القسمات واضحها، ولم تكن حاشيته دونه في البدانة فلفت ذلك انتباهي بشدَّة، وأيقنتُ أنَّ الرئيس ورجاله يحظَون بنظامٍ غذائيٍّ خاصٍّ يشذُّ عمَّا تخضع له جموع الشعب، وتخيَّلتُ ما يمكن أن يدور بيني وبين فلوكة من حوار عن ذلك. سيقول لي إنَّ نظام الأمان لا يخلو من امتيازات يخصُّون بها الأفراد تبَعًا لتفوُّقهم في العلم والعمل، وإنه من الطبيعيِّ أن يكون على رأس هؤلاء الرئيس المنتخب ومعاونوه. وإنَّ هذه الامتيازات تُمنح في حدودٍ ضيِّقة لا تسمح بوجود فوارقَ طبقيَّة، ولأسبابٍ معقولةٍ لا صلة لها بامتيازات الأُسر والقبائل والطبقات في المجتمعات الأخرى التي يسودها الظلم والفساد. والحق أني لم أجد في ذلك ما يخرق القانون العادل السائد في دار الأمان، ولم أجد به وجْهَ شبهٍ بما يجري في الدُّور الأخرى، وعلى رأسها دار الإسلام نفسها من تفاوتٍ فاحشٍ ظالمٍ في معاملة الناس. وخطَر لي أني أرى الأمور بوضوح أكثر من ذي قبل. أجل، إنَّ لِدار الحلبة هدفًا، وقد حقَّقته بدقَّة، وإنَّ كذلك لِدار الأمان هدفًا، وقد حقَّقَته بدقة، أمَّا دار الإسلام فهي تُعلن هدفًا، وتُحقِّق آخَر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسِب، فهل يوجد الكمال حقًّا في دار الجبل؟!

رجَع الرئيس إلى مِنصَّة أمام القصر فصِعد إليها. ومضى يخطب شعبه، عارضًا عليه تاريخ ثورته، وموقعة نصره، وما أنجز له في مجالات حياته المختلفة. ركَّزتُ على متابعة العواطف المتبادَلة بين الرجل والناس، فلم أشكَّ في حماسهم، وتلاقيهم في آمالٍ واحدةٍ ورؤيةٍ متماثلة. ليسوا بالأمَّة المقهورة المغلوبة على أمرها، ولا الفاقدة الوعي والتربية، لعلَّ

ما ينقُصها شيءٌ هامٌّ، لعل سعادتها تشوبها شائبة، رأيتها أمَّة مُتماسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوعٍ ما.

عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقَت الميدانَ ثلَّةٌ من الفُرسان شاهرة رماحها، وقد غُرست في أسنَّة الرِّماح رءوسٌ آدميَّة منفصلة عن أجسادها. غاص قلبي من فظاعة المنظر، ونظرتُ نحو فلوكة، فقال باقتضاب: خونة متمرِّدون!

لم يتَّسع الوقت للحوار. وعاد الشعب يُردِّد النشيد، وانتهى الاحتفال بهُتاف شامل.

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء، وفي أثناء ذلك قال فلوكة: أزعجك منظر الرءوس المقطوعة؟ .. ضرورة لا مَفَرَّ منها، نظامنا يطالبنا بألَّا يتدخَّل إنسان فيما لا يعنيه، وأن يركِّز كلُّ فرد على شئونه، فالمهندس لا يجوز أن يثرثر في الطب، والعامل لا يجوز أن يخوض في شئون الفلاح، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية أو الخارجية، ومَن تمرَّد على ذلك فجزاؤه ما رأيت.

أدركتُ أن الحرية الفردية عقوبتها الإعدام في هذه الدار، واعترتني لذلك كآبة شديدة، وحنِقتُ على فلوكة لإيمانه المتعصِّب بما يقول.

وسهِرنا ليلًا في سيرك كبير اكتظَّ بالناس، وشهِدْنا من أفانين الألعاب والغناء والرَّقص ما يُسلِّي ويَسُرُّ، وتناولنا عشاءً من الشواء والفواكه. وشرِب فلوكة، ودعاني للشرب. ولمَّا لم أستجب اضطُرَّ إلى الاعتدال وهو كظيم. وغادرنا السيرك عند منتصف الليل، وسرنا على مهل تحت ضوء القمر في شوارع معمورة بالمترنِّحين، وطاب لي الحديث فقلتُ: ما أجمل لَهْوكم!

فقال باسمًا لأول مرَّة إمَّا لمناسبة العيد أو الخمر: وما أجمل جِدَّنا!

ورآني أبتسم فلم يرتَحْ لابتسامتي وقال: أترى الحياة في وطنك الأوَّل أو وطنك الثاني خيرًا من حياة الأمان؟

فقلتُ بمرارة: دع وطني الأول فأهلُه خانوا دينهم.

فقال بخشونة: إذا لمْ يتضمَّن النِّظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا بقاء له.

– إننا لم نفقِد الأمل بعد.

– إذَن لِمَ كانت الرحلة إلى دار الجبل؟

فقلت بفتور: العِلم نور.

فقال ساخرًا: ما هي إلَّا رحلة إلى لا شيء.

وتتابعَت الأيام مُضجِرة، وأخذ النَّاس في الفندق يتحدثون عن العَلاقة بين الحلبة والأمان، بنبرةِ إشفاقٍ وتشاؤم، وسألتُ فلوكة عمَّا يكمن وراء ذلك فقال: في حربهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقِّنا في عيون المياه، ولَمَّا انتصروا سحبوا اعترافهم بكلِّ خِسَّة ودناءة، واليوم يُقالُ إنهم يجنِّدون جيشًا من البلدين اللتين استولَوا عليهما، المشرق والحيرة، وهذا يعني الحرب.

واستحوذ عليَّ القلق فسألتُه: وهل تقوم الحرب حقًّا؟

فأجاب ببرود: نحن على أتمِّ استعداد.

فحام فكري نحو سامية والأبناء، وتذكَّرتُ مأساةَ عروسة وأبنائها. وانتظرتُ على لَهفٍ انتهاءَ الأيام العشرة، ومَرَّ يوم ويوم دون حدَثٍ، فاطمأنَّ قلبي وأخذتُ أستعِدُّ للرحيل، وفي تلك الآونة خطَر لي أن أسألَ فلوكة عن الرحَّالة البوذي وزوجته عروسة، اللذين زارا الأمان منذ عام فأكَّد لي أنه يُمكن أن يُمدَّني بمعلومات عنهما عندما نذهب إلى المركز السياحي في آخر أيام الإقامة. وأنجز الرجل وعْدَه، وراجع الدفاتر بنفسه، وقال لي: مكث الزوجان في دار الأمان عشرة أيام ثم سافرا في القافلة الذاهبة إلى دار الغروب، غير أنَّ الزوج مات في الطريق ودُفن بالصَّحْراء، أمَّا الزوجة فواصلَت رحلتها إلى دار الغروب.

هزَّني الخبَر، وتساءلتُ عن مكان عروسة وحالها، وهل أجدها في دار الغروب، أو تكون رحلَت إلى دار الجبل، أو رجعَت إلى المشرق؟!

وعند الفجر كنتُ ومتاعي في محطِّ القافلة، صافحتُ فلوكة وقلت له: أشكر لك مرافقتك لي الطيِّبة، وما أسديتَه إليَّ من فوائد.

فشدَّ على يدي صامتًا، ثُمَّ همَس في أُذني: قامت الحرب بين الحلبة والأمان.

اضطربت لدرجة منعتني من الاستمرار في الكلام، حتى البادئ بالحرب لم أسأل عنه. وهيمنت عليَّ ذكريات سامية والأبناء، وحتى الوليد المنتظَر.

دار الغُروب

انغمسَت القافلة في ظلمات الفجر، وأنا أنظر إلى لا شيء بقلبٍ مشحونٍ بالقلَق، لم يُكتَب لي أن أرحل مرَّةً بقلبٍ مُطمئنٍّ ونفسٍ صافيةٍ، ولكن تغشاني دائمًا المخاوف. خيالي المحموم يحوم حول الحلبة داعيًا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام، مُتسائلًا في حَيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامي بين أقوى دارَين. ورفعتُ بصَري إلى حديقة السَّماء المُزْهرة وغمغمتُ: «كن معنا يا إله السماوات والأرض.» وأشرقت الأرض بنور رَبِّها، فرأيتُ صَحْراء مترامية مستوية وجوًّا صيفيًّا حنونًا، كما رأيتُ الغزلان تثِبُ هنا وهناك، حتى أطلقتُ عليها صَحْراء الغزلان. وامتدَّ السفر شهرًا فعانينا عناءً غيرَ ذي عنف يبشِّر بالحُسنى، وفي هزيعٍ من الليل بشَّرَنا صوتٌ بأننا بلغنا حدود دار الغروب. وكان القمر نصفًا، والجوُّ مُفضَّضًا، ولكني لم أرَ سورًا، ولا مندوب الجمرك. وقال صاحب القافلة ضاحكًا: هذه دار بلا حُرَّاس فادخلوها بسلام آمنين.

فسألتُه: وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء؟

فقال وهو يواصل الضحك: سيُنبئك نور النهار بما تسأل عنه.

وانتظرتُ مَشُوقًا حتى أشرقت الشمس. لعلَّها أجمل شمسٍ عرَفتُها في حياتي، فهي نور بلا حَرارة أو أذًى، يَزُفُّها نسيم عليل ورائحة طيبة، وترامت أمامي غابة غير محدودة. ولكن لم يقع بصري على بناء، كوخ أو بيت أو قصر، كما لم أشاهد أحدًا من الناس. لُغز جديد عليَّ أن أكتشفه، ولكن ماذا أصنع بمتاعي؟ ورجَعتُ إلى صاحب القافلة فقال: ضعه في مكانه ولا تخَف، اذهب آمنًا وعُدْ آمنًا.

واخترتُ موضعًا قريبًا من عين الماء فجعلتُها علامة، ووضعتُ الحقائب، وأودعتُ الدَّنانير حزامًا تمنطقتُ به تحت الجلباب. ورحتُ أتجوَّل مُستكشفًا. أسيرُ فوق أرض

مُعشَوشِبة، ونُثرَت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة، تتخلَّلها عيون مياه وبحيرات. وخُيِّل إليَّ في أوَّل الأمر أنها خالية من البشر، حتى رأيتُ أوَّلَ آدميٍّ مُتربعًا تحت نخلة، كهْلًا أبيضَ الشَّعر مرسَلَ اللحية، صامتًا وناعسًا أو غائبًا، متوحِّدًا بلا قرين أو قرينة، فدنَوتُ منه كأني عثرتُ على كَنز وقلتُ له: السلام عليك يا أخي.

ولكن لم يَبْدُ عليه أنَّه سمِعَني؛ فكرَّرتُ السَّلام وقلتُ: إني رَحَّالة وفي حاجة إلى كلمة تُضيء لي الطريق.

فلم تندَّ عنه نَأْمة، وظلَّ غائبًا في ملكوته فسألتُه: ألا تُريد أن تتحدَّث معي؟

فلم يظهر عليه أيُّ ردِّ فِعل، وكأنما لا وجود لي فآيسني منه، فتحولتُ عنه مُرغَمًا، وواصلتُ السَّيْر، وكلَّما أوغلتُ صادفني آخر على مِثْل حاله، رجلٌ أو امرأة، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلا الرَّفض أو التجاهل، حتى خُيِّل إليَّ أنها غابة من الصُّمِّ البُكم العُمي. ألقيتُ نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولي، وغمغمتُ: «إنها جنة بلا ناس.» تناولتُ من الفواكه الساقطة على الأرض حبَّاتٍ حتى شبِعتُ، ثم رجَعتُ إلى متاعي فرأيتُ التجار وهم يملَئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب. ولمَّا رآني صاحب القافلة ضحِك وقال: هل استطعت أن تستنطق أحدًا منهم؟

فحرَّكتُ رأسي بالنفي فقال: إنها جنة الغائبين، ولكن خيراتها مبذولة بلا حساب.

فسألتُه باهتمام: ماذا تعرف عنهم؟

فقال دون مبالاة: يوجد في الغابة شيخٌ يقصِده القاصدون، فلعلَّه يُمدُّك بما تسأل عنه.

فأحيا أمل الرحَّالة من جديد، فقلتُ له وأنا ثمِلٌ بنشوةِ فوز: ما أجمل جوَّ الصيف ها هنا!

فقال الرجل: هكذا جميع الفصول.

ونهضتُ مع الشمس نشيطًا مُتفائلًا، فسمعتُ أحدَ التجار يقول: سنَظلُّ نذهب ونجيء ما بين الأمان والغروب، حتى تنتهي الحرب، وتفتح الطرق للقوافل من جديد.

وانطلقتُ إلى عمق الغابة، أتقدَّم بلا توقُّف حتى ترامَى إليَّ صوتُ غناءٍ جماعيٍّ، اتجهتُ نحو الصوت حتى تراءى لعينيَّ منظرُ جماعةٍ من نساءٍ ورجالٍ تجلس فوق الأرض على هيئة هلال، بين يدَي شيخ هَرِم، يتَّخذ مجلَسه تحت شجرة وارفة، وكأنه يُعلِّمهم الغناء وهم يردِّدون الصوت في حنان بالغ، جعلتُ أقترب حتى قبعت وراءهم، ونظرتُ إلى الرجل فرأيتُ شيخًا عاريًا إلا مما يستر العورة، كأنَّ هالة من نور تحدِق بوجهه الوضيء

وعينيه الجذَّابتَين. وخُتم الغناء أو الدرس، فقام الرجال والنِّساء، وتفرَّقوا في هدوء. لم تكن عروسة بين النساء، ولم أعثر عليها أمس، ولكنَّ رائحتها كانت تخالط في الجوِّ روائحَ الفاكهة والأعشاب الخضراء. لم يبقَ في المكان إلا الشيخ وأنا. وقفتُ في خشوع بين يدَيه فنظرَ إليَّ بعينيه الصافيتين فشعَرتُ بأنني موجود. تلاشت الغُربة التي خنقتني في الغابة أمس؛ فانتميت إلى دار الغروب، ولم تضِع الرحلة سُدًى، رفعتُ راحتي إلى جبيني تحيةً وقلتُ: إنك ضالَّتي يا مولاي.

فسألني وهو يتفرَّس وجهي: قادم جديد؟

– أجل.

– ماذا تريد؟

– رَحَّالة يمضي من دارٍ إلى دار، وراء المعرفة.

فأغمض عينيه دقيقة، ثم فتحهما، وقال: غادرتُ دارك للمعرفة، ولكنك حِدْتَ عن الهدف مرَّات، وبدَّدتَ وقتًا ثمينًا في الظلام، وقلبك مُوزَّع بين امرأة خلَّفتها وراءك، وامرأة تجِدُّ في البحث عنها.

ذهِلتُ حقًّا ورمقتُه بخوف ثم قلتُ: كيف تأتَّى لك أن تقرأ الغيب؟

فقال ببساطة: هنا يفعلون ذلك وأكثر.

– أأنت حاكم هذه الدار؟

– لا حاكمَ لهذه الدار. وأنا مُدرِّب الحائرين.

فقلت بحرارة: زِدْني فَهْمًا!

– كلُّ شيءٍ مرهونٌ بوقته.

فأومأتُ إلى ما حولي وقلتُ: لماذا لا يردُّون تحيةً أو يسمعون كلمة؟

فقال بهدوء: حياتهم هنا موافقة للحَق، ومفارقة للخَلْق.

– يبدون كالغائبين؟

– باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى.

فتفكَّرتُ فيما سَمِعتُ ثم سألتُه: وما غايتهم من وراء ذلك؟

– جميعهم مُهاجرون، ومن شَتَّى الأنحاء يجيئون إعراضًا عن الهواء الفاسد، وليُعدُّوا أنفسهم للرِّحلة إلى دار الجبل.

فطرِبتُ للاسم وقلتُ بحبور: إذَن سأجد رفاقًا في رحلتي الأخيرة.

فلاحت ابتسامة في عينيه وقال: عليك أن تُعدَّ نفسك مِثلهم.

– كم يتطلَّب ذلك من وقت؟

– كلٌّ بحسب قُدرته، وقد تخور الهِمَّة فيُنصح بالبقاء في الغروب. فانقبض صدري وسألته: وإذا أصرَّ على الذَّهاب؟

– يُخشى أن يعامَل هناك كالحيوان الأعجم!

فدهمَتني حيرةٌ شديدة وسألتُه: وكيف تُعِدُّهم للرحلة؟

فقال بوضوح: كل شيء يتوقَّف عليهم، إني أُدرِّبهم بالغناء لتمهيد الطريق، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها.

فقلت بحيرة: لم أسمع مِثل هذا الكلام من قبل.

– هذا شأن كلِّ جديد.

فسألته بضراعة: ما معنى أن أستخرج من ذاتي القُوى الكامنة فيها؟

– معناه أنَّ في كل إنسان كنوزًا مطمورةً عليه أن يكتشفها، خاصَّةً إذا أراد أن يزور دار الجبل.

– وما العَلاقةُ بين هذا ودار الجبل؟

فصمتَ مليًّا ثم قال: إنهم هناك يعتمدون في حياتهم على هذه الكنوز، فلا يستعملون الحواس ولا الأطراف.

فقلتُ برجاء: هلا وهبتَني فكرةً عن هذه الكنوز؟!

– لا تتعجَّل.

– ومتى أعرف أنني وُفِّقت؟

فقال بهدوء: عندما يتأتَّى لك أن تطير بلا أجنحة.

فأمعنتُ النَّظر فيه بذهول، ثم قلتُ مُتأثرًا بجِدِّه وصِدقه: لعلك تُحدِّثني على سبيل المجاز.

– بل هي الحقيقة دون زيادة .. الدار هناك تقوم على هذه القُوى، وبها شارفت الكمال.

فقلتُ بتصميم: ستجدني من المخلصين.

– سيكون جزاؤك المكوث في دار الجبل.

– فقلتُ بعجَلة: ما هي إلا زيارة أرجع بعدها إلى داري.

فقال بيقين: سوف تنسى بها الدنيا وما فيها.

– لكنَّ وطني في حاجة إليَّ.

فسألني متعجِّبًا: وكيف تركتَه؟

– قمتُ بالرحلة بأَمَلِ أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه.

فقال الشيخ بامتعاض: إنك من الهاربين، تعلَّلتُ بالرحلة فِرارًا من الواجب، لم يُهاجر أحدٌ إلى هنا إلا بعد أن أدَّى واجبه، ومنهم من خسِر زهرةَ عمره في السجن في سبيل الجهاد لا بسبب امرأة.

فهتفتُ جزعًا: كنتُ فردًا حيال طغيان شامل.

– هذا عذر الخائر.

فتوسَّلتُ إليه قائلًا: ليكُنْ من أمرِ الماضي ما يكون، فلا تُثبِّط همَّتي ولا تُبدِّد حياتي هباءً.

فلاذ بالصمت حتى اعتبرتُ الصمت رضًا، وتشجَّعتُ قائلًا: ستجدني من أهل العزم والإخلاص.

وقمتُ حانيًا رأسي في خشوع، وخطر لي خاطر فتردَّدتُ جافلًا من إعلانه، وإذا به يقول: تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة!

فذهِلتُ كما ذهِلتُ حين انتزع ماضيَّ من الظلمات، وساءلتُ نفسي تُرى أهكذا يتفاهمون في دار الجبل؟ أمَّا هو فقال: لقد سبقَت إلى دار الجبل.

فسألتُه بدهشة: وُفِّقَت في خوض التجربة؟

فقال باسمًا: بفضل ما عانت في حياتها من آلام.

ولمَّا هممتُ بالذَّهاب تساءل: ما فائدة الدنانير التي تكنزها حول وسطك؟

رجَعتُ إلى محطِّ القافلة فأودعتُ الدنانير إحدى الحقائب. وقال لي صاحب القافلة: نحن ذاهبون فجْرَ الغد.

فقلتُ دون مبالاة: إني باقٍ.

وفي أعقاب الفجر كنتُ أوَّل من قصَد مجلس مولاي. ولحِقَ بي نفَرٌ من القادمين الجُدد، فجلسنا على هيئة هلال، عرايا إلا مما يستر العورة. وقال الشيخ: أحبُّوا العمل ولا تكترثوا للثمرة والجزاء.

وصمتَ قليلًا ثم واصل حديثه: أول درجة في السُّلَّم هي القدرة على التركيز الكامل.

وصفَّق بيدَيه ثم قال: بالتركيز الكامل يغُوصُ الإنسان في ذاته.

وراح يُغنِّي ونحنُ نُرَدِّدُ غناءه. وقد رفعني الغناء إلى عالَم آخر. وعند كل مقطَعٍ تدفَّق من وجداني ينبوعُ قوة.

وعدت إلى مجلسي تحت نخلة وشرَعتُ في التجربة. صارعت التركيز وصارعني. والتحمتُ في معركة حامية مع صور حياتي الماضية. تغزوني بالحب والوفاء، وأطاردها بمرِّ العناء، وتمرُّ الأيام مليئة بالعذاب والعزم والأمل. وعند بداية كلِّ درس، قبل الغناء والترديد، يوصينا بحبِّ العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول: بذلك تُوثَّق المودَّة بينكم وبين روح الوجود.

كما يوصينا بالتركيز قائلًا: إنه مُفتِّح أبواب الكنوز الخفيَّة.

ويقول بيقين: هناك (دار الجبل) بالعقل والقُوى الخفيَّة، يكشفون الحقائق، ويزرعون الأرض، ويُنشئون المصانع، ويحقِّقون العدل والحرية والنقاء الشامل.

وأرجع إلى عزلتي، وأنا أتخيَّل اليوم الذي أسلِّط فيه قُواي الكامنة على كلِّ مُعوَجٍّ في وطني، لأُنشئه من جديدٍ مقامًا صالحًا لقوم صالحين. وتمرُّ الأيام وأنسى الزَّمن فلا أدري كم مضى عليَّ من أيام وشهور، ويمتلئ وعائي بالثقة، وتبرق في ظلماته بوارق الإلهام. واستيقظتُ ذات يومٍ قبل الفجر مُبكِّرًا عن ميعادي المعتاد، وذهبتُ من فوري إلى الشيخ فوجدته جالسًا تحت ضوء النجوم؛ فاتخذتُ مجلسي وأنا أقول: ها أنا ذا يا مولاي.

فسألَني: ماذا جاء بك؟

فقلتُ بثبات: نداءٌ صدَر منك إليَّ.

فقال راضيًا: هذه خطوة أولى للنَّجاح، وأول الغيث قَطْر.

وصمتنا في انتظار قدوم الرِّفاق حتى اكتمل هلالنا، وبدا وجْه الشيخ في ضوء الشروق واجمًا. وشرَع في الغناء كالعادة، فردَّدنا الغناء ولكنَّا لم نثمَل بالسرور. وقبل أن ننصرف عنه قال: الشر قادم فتلقَّوه بالشجاعة الجديرة بكم.

ولم يُضِف إلى ذلك كلمة، مُتجاهلًا أعيننا المتسائلة .. واستيقظنا غداة اليوم التالي على جلَبةٍ وصهيلِ خَيل، ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم، رأينا جيشًا من فُرسان ورجَّالة يطوِّق دار الغروب دون سابق إنذار. وهُرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا حوله صامتين هادئين. وراحوا يغنُّون حتى أشرقَت الشمس، وعند ذاك قدِمَ قائد يتبعه حُرَّاس حتى وقف أمامنا. من النظرة الأولى اكتشفتُ أنهم جيش دار الأمان، وتساءلتُ في قلَق: تُرى هل انتصروا على الحلبة؟ وقال القائد: بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة، وبناءً على ما بلَغنا من أنَّ الحلبة تفكِّر في احتلال دار الغروب لتطوِّق دار الأمان، فقد اقتضت دواعي الأمن أن نحتلَّ أرضكم.

ساد الصمتُ، ولم يُعلِّق أحدٌ من جانبنا بكلمة، فقال القائد: إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض، وأن تنضمُّوا إلى البشر العاملين، وإلا فسوف نُعِدُّ لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل.

ساد الصمت مَرَّة أخرى حتى خرقه الشيخ موجِّهًا خِطابه لنا: اختاروا لأنفسكم ما تحبون.

فاستبَقَت الأصوات هاتفةً: دار الجبل .. دار الجبل.

فقال الشيخ مُحذِّرًا: ستلقَون عناءً لنقْصِ تدريبكم.

فأصرُّوا هاتفين: دار الجبل .. دار الجبل.

فقال القائد بحزم: من يُعثَر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيُعتبر أسيرَ حرب!

البداية

عند الفجر غادرَت القافلة دار الغروب. لأول مرة يستأثر بها الرحَّالة والمهاجرون، ولا يُرى بها تاجر واحد. ولفَّنا قلَق، وحزن وإشفاق لِما حلَّ بدار الغروب، ولانقطاعنا الإجباري عن التدريب، وتمنَّيتُ أن تسنَح في الطريق فُرَص لمعاودة التركيز والاجتهاد تخفيفًا من العناء المُنتظَر. وكشف الشروق عن صَحْراء مستوية، تكثُر في أرجائها عيون المياه. وسِرنا شهرًا حتى اعترض سبيلنا الجبل الأخضر مُمتدًّا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وكان علينا أن نَعبُر الجبل صعودًا وهبوطًا، وترامى أمامنا فَجٌّ واسع يتدرَّج في صعوده تدرُّجًا هيِّنًا رفيقًا، فاتَّجهَت إليه القافلة. وتساقط الرذاذ في أوقات متقطِّعة فآنس من وحشتنا. وجعلنا نسير بالنهار ونُعسكِر في الليل حتى بلغْنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. كان سطحًا عريضًا غزير الأعشاب، وعند حافَّته قال الشيخ وهو يُشيرُ بيده: هاكم دار الجبل.

كان يُشير إلى جبلٍ آخَر، يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صَحْراء، وعلى سطحه قامت الدار عالية مُترامية هائلة القِباب والمباني تنطق بالعظمةِ والسموِّ. نظرتُ صوبها بذهول وافتتان. لم تَعُدْ حُلمًا ولكنها حقيقة، وحقيقة قريبة، فليس بيننا وبينها إلا أن نهبط السفح ونقطع الصَّحْراء القصيرة، ثم نصعد الجبل الآخر، فنجد أنفسنا أمام مداخلها، ومدير الجمرك يقول لنا: أهلًا بكم في دار الجبل، دار الكمال.

وقلَّ صبرُنا وتَعجَّلنا الرحيل فهبطَت القافلة سفح الجبل في أسبوعين، حتى بلغنا الصحراء. ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصَّحْراء أمامنا كأنها بلا نهاية، ولم نكَدْ نرى الجبل من شدة إيغاله في البُعد. عجِبتُ لخداع البصر، وأيقنتُ من أنه ستمضي أيام وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذي تقوم على سطحه دار الجبل. وسرنا أسابيع وأسابيع، وضاعَف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب؛ مما اضطرَّنا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة أخرى، حتى خُيِّل إليَّ أنه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر.

ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدَّى الأشواق. وإذا بصاحب القافلة يقول: هنا ينتهي سَيْر القافلة يا سادة.

فلم أصدِّق أُذني وقلت: بل تصعد بنا حتى دار الجبل.

فقال الرجل: الممرُّ الجبليُّ ضيقٌ كما سترَون لا يتَّسع لناقةٍ أو جمَل.

وهُرعنا إلى شيخنا فقال بهدوء: صدَق الرجل.

– وكيف نواصل رحلتنا؟

فقال بلا مبالاة: على الأقدام كما واصلها السابقون.

وقال صاحب القافلة: من يشقُّ عليه السَّيْر فليرجع مع القافلة.

ولكن لم تَهُن عزيمةُ أحد، وصمَّمنا على المغامرة. وفكَّرتُ في ذاتي وفيمن خلَّفتُ وفيما قد يصادفني من أسباب تحول دون عودتي، فكَّرتُ في ذلك فخطَر لي خاطر، وهو أن أعهد بدفتر رحلتي إلى صاحب القافلة ليُسَلِّمه إلى أمي، أو إلى أمين دار الحكمة، ففيه من المشاهد ما يستحق أن يُعرف، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدِّد بعض ما يُخيِّم عليها من ظلمات، وتُحرِّك الخيال لتصوُّر ما لم يُعرف منها بعد. ولا بأس بعد ذلك أن أُفرد دفترًا خاصًّا لدار الجبل، إذا قُيِّض لي زيارتها والرجوع منها إلى الوطن. وقبِلَ الرجل القيام بالمهمَّة، فنفَحتُه بمائة دينار، وقرأنا الفاتحة. تخفَّفتُ بعد ذلك من وساوسي، وتأهَّبتُ للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تُقهر.

بهذه الكلمات خُتم مخطوط الرحَّالة قنديل محمد العنَّابي الشهير بابن فطومة.

ولم يرِدْ في أيٍّ كتاب من كتب التاريخ ذِكْر لصاحب الرحلة بعد ذلك.

هل واصل رحلته أو هلَك في الطريق؟

هل دخل دار الجبل؟ وأي حظٍّ صادَفه فيها؟

وهل أقام بها لآخر عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى؟

وهل يُعثر ذات يومٍ على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟

عِلْمُ ذلك كلِّه عند عالِم الغَيْب والشَّهادة.


هنداوي